الباب الثامن

رمضان شهر الجهاد والفتوحات

شهر الجهاد والفتوحات

رمضان شهر الجهاد وشهر التجارة الرابحة ذروة سنام الإسلام قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ [الصف : ١٠ - ١٣] .

من ذا الذي لا يشتاق أن يدله الله على هذه التجارة ... ألا يشرق القلب عند سماع هذه الآيات في فضل الجهاد .

﴿ يغفر لكم ذنوبكم .. ﴾ وهذه وحدها تكفي فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء ؟ أو يدخر في سبيلها شيئاً . ولكن فضل الله ليس له حدود ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن .. وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم .

إن المؤمن الذي يدرك هذا ويعيش بقلبه هذا التصور ويطلع على آفاقه وآماده ثم ينظر إلى الحياة بغيرة في حدودها الضيقة الصغيرة وفي مستوياتها الهابطة الواطية وفي اهتماماتها الهذيلة الزهيدة هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة بغير أن يحدث نفسه به ويكفي ما سكن في القلب من رضى وارتياح .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ وهذا وضع كريم يرفعنا الله إليه وهل أرفع من مكان أن يكون العبد نصيراً للرب ؟ إن هذه الصفة عمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم .

وقال تعالى : **﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾** [آل عمران : ١٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [التوبة : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ [الحج : ٧٨] .

انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة واختاركم لها من بين عباده إنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء .

وقال تعالى : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ .

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض** » (١) .

إن الجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة وإنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة وإلا لما قال رسول الله ﷺ تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة « **من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق** » ، ومن ثَمَّ لابد منه في كل صورة ولابد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والشهود لابد من بذل الأموال والأنفس .

وتلك حياة رفيعة نظيفة كريمة حرة طليقة بدلاً من الحياة الذليلة الضعيفة لذة التجرد لله وهذه لذة علوية لا تعدلها لذائذ في الأرض لذة الرجاء في رضوان الله ولذة الاستعلاء على

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

الضعف والهبوط والخلاص من ثقلة اللحم والدم والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء .

إن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال .

﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ﴾ .

وقال تعالى : **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾** [التوبة : ١١١] .

بيعة الله لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ولا في ماله يحتجزه دون الله سبحانه ، باع المؤمن نفسه وماله مقابل الجنة وهو ثمن لا تعدله السلعة ولكن فضل الله ومَنَّه لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا ... كلا ... إنها صفقة مشتراه لشاريها أن يتصرف بها وفق ما يفرض ووفق ما يحدد . ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل .

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم نفسه وماله ويستعيض الجنة ؟ فالجنة الكسب كل الكسب .

قال ﷺ : « **عليكم بالجهاد في سبيل الله فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغم** » [1] **﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾** [التوبة : ٣٨] .

إنها ثقلة الأرض ومطامع الأرض وتصورات الأرض ثقلة الخوف على الحياة والخوف على المال والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع ، ثقلة الدعة والراحة .

ثقلة اللحم والدم والتراب والجسم المترف الثقيل وهم مع هذا يقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الأوسط » عن أبي أمامة ، وأحمد والحاكم والضياء عن عبادة وصححه الألباني في « صحيح الجامع » .

وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب اللّه عليها الذل فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه لها جهاد الأعداء .

وواقع الأمة المسلمة الآن وهتك أعراضها وسلب أغلى مقدساتها وذبح أطفالها وهدم الثوابت من دينها ، جزاء من جنس عملها ، جزاء ما تركت من ذروة سنام دينها . والعيش بعيداً عن الجهاد عيش تافه رخيص مفزع وهكذا تخاف الأمة من ظلها وتفرق من صداها تؤدي ضريبة الذل كاملة تؤديها من نفسها ومن قدرها ومن سمعتها ومن اطمئنانها ومن دينها بعد أن باعها عملاء اليهود في كل واد .

ما العجب : قد كبت المآذن غيلة ... واغتيل تحت قبابنا الترتيلُ
وإذا عيون الشمس تطبق جفنها ... حول الصباح أينفع القنديل ؟
مالعجب ؟ قد باع الرجال سيوفهم ... وتعثرت بالهاربين خيول
واستبدلوا طبلاً بصوت مكبر ... فإذا الجهاد ربابة وطبول
تحت الكراسي في البلاد جماجم ... وعل الكراسي في البلاد مغول
وإذا الزنادقة استقام لأمرهم ... حكم فغانية الكهوف بتول
للجاهلية في البلاد عقيدة ... وبني قريضة محفل وقبيل
زمر إذا مرت على بستاننا ... شاصت عروق النخل وهي حمول
يدرون أن الوحل فوق جباهم ... ينمو وأن أمامهم ضِلِّيلُ[1]

وتحول الصقر الإسلامي إلى طائر الحجل في وداعته وكما قال إقبال : « عَلَّموا الليث حجلة الظبي وأمحوا عنه قصة الأسد » . الإسلام يا إخوتاه دين لا يتعارض مع الواقع ولا يكلف اللّه نفساً إلا وسعها وهذا الأمر يحتاج إلى جهاد أمة بأسرها فقد تذهب الأيام بداهية وتأتي بداهية أفظع منه والحماس وحده لا يكفي وهذا قول الإمام المجاهد ابن تيمية من حنكته الأيام والتجارب يقول : « فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمَّن يؤذي اللّه ورسوله من

---

(١) من قصيدة ثكلتك دجلة يا فرات بتصرف للشاعر يحيى السماوي المجلة العربية العدد (٢٠٩) .

الذين أوتوا الكتاب والمشركين وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ الذين يطعنون في الدين وبآية ﴿ **فقاتلوا الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ »[١] .

وأمام الواقع البائس النكد الذي يواجه أمة سقطت إلى الوحل وضاع منها كل شيء يقول الشيخ سيد قطب : « فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام فهم اللحظة ومؤقت غير مكلفين بتحقيقها ولا يكلف اللّه نفساً إلا وسعها ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها » .

ويبقى دائماً وأبداً في كل وقت جهاد الحجة قال تعالى : ﴿ **وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ .

قال ابن القيم : « ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله : ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ..** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **جهاداً كبيراً** ﴾ فهذه السورة مكية والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة »[٢] .

وأمام الدعاة المجاهدين بالحجة ألوف من تلاميذ الاستشراق وصبيان العلمانية والدعاة إلى القومية والماسونية وأصحاب الدعوة إلى الإنسانية وإلى زمالة الأديان والدعوة إلى السلام العالمي البارد تلاميذ اليهود والصليبية العالمية الذين يدبجون الشبه ويجدون من علماء السوء من يطلق بضاعته المسمومة ، فإن للقرآن من القوة والسلطان والتأثير العميق ما يهز القلوب ويزلزل الأرواح ولا يثبت لحجته مجادل أو ممحال .

يصيبهم الزعر من صمود الدعاة أمامهم يقارعونه بحجج القرآن الناصعة وإن لم يكن هذا جهاد فأي شيء يكون ؟!

رمضان شهر الجهاد والفتوحات : امتنَّ اللّه عز وجل على الأمة في هذا الشهر بأحلى انتصاراتها وعلى مدار التاريخ الإسلامي كان هذا الشهر رمز للعطاء والبذل .

---

(١) « الصارم المسلول » لابن تيمية (ص ٢٢١) .

(٢) « زاد المعاد » (٢ / ٥٨) .

*ففي السنة الأولى من الهجرة وفي رمضان كوّن المسلمون أول سرية بقيادة حمزة بن عبد المطلب ثم سرية عبيدة بن الحارث وذلك لبث الرعب في قلوب الأعداء .

غزوة بدر الكبرى (غزوة الفرقان) :

*وفي السنة الثانية من الهجرة وفي السابع عشر من رمضان كانت غزوة بدر الكبرى :

وبيئر بدر إذ يكفّ مطيهم جبريل تحت لوائنا ومحمد

مضت في التاريخ كله قصة عقيدة . قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل قصة انتصار الحق على أعدائه المدجّجين بالسلاح المزودين بكل زاد ، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله الثابتة المستعلية بيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها لقد انتصرت على نفسها فقلبت بيقينها ميزان الظاهر .

تمضي غزوة بدر مثلاً في التاريخ تقرر دستور النصر والهزيمة إلا أنها كتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان وفي كل مكان فهي آية من آيات الله ما دامت السماوات والأرض .

﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾[آل عمران : ١٢٣] .

خرج النبي ﷺ في ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً يريدون أبي سفيان والغنيمة فأرادها الله ملحمة فجمعهم الله بعدوهم على غير ميعاد وخرجت قريش بقدها وقديدها تسعمائة وخمسين مقاتلاً ، ألف رجل بعدتهم وعتادهم بطراً ورئاء الناس يقول فاجرهم : لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، واستفتح اللعين أبو جهل « اللّهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف » . وفي رواية « اللّهم أضل الفريقين وأقطعهما للرحم فأحنه الغداة » .

وفي يوم بدر يتجلى ثبات الرجال :

يقول المقداد بن عمرو : « يا رسول الله امضي لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

ويقول صديق الأنصار سعد بن معاذ : « امضي يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل

واحد وما نكره أن تلق بنا عدونا غداً إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل اللّه أن يريك منا ما تقرّ به عينك فسر على بركة اللّه فَسُرّ رسول اللّه بقول سعد وقال : « سيروا وأبشروا فإن اللّه قد ودعني إحدى الطائفتين واللّه لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

إنها قصة الاستغاثة والتجرد للّه .

« استقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثم قال : « اللّهم أنجز لي ما وعدتني ، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً » فما زال يستغيث اللّه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي اللّه كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل اللّه عز وجل ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممد كم بألف من الملائكة مردفين** ﴾[الأنفال : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ [الأنفال : ١٢] .

إنه يوم قتال جبريل والملائكة مع الصادقين .

عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه – وكان أبوه من أهل بدر – قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « **من أفضل المسلمين** – أو كلمة نحوها – قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة » (١) . وقتل صناديد قريش وقطع دابر الكافرين ، وخضدت شوكتهم ، وعلت راية الإسلام وكلمة اللّه بمقدار اتصال القلوب باللّه لا تقف لها قوة وكان هذا عن تجربة واقعية لا مجرد تصور واعتقاد قلبي ، لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله وخلاصة هذه الموقعة ما قالته قريش نفسها قبلها .

« لما بعث خفاف بن أيماء بن رخضة الغفاري – أو أبوه أيماء بن رحضة الغفاري إلى قريش – حين مروا به ، ابناً له بجزائر أهداها لهم ، وقال لهم : إن أحببتم أن نمد كم بسلاح ورجال فعلنا ، قال : فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم ! قد قضيت الذي عليك . فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم . ولئن كنا إنما نقاتل اللّه – كما يزعم محمد – فما لأحدٍ باللّه من طاقة .

---

(١) رواه البخاري .

* في السنة الثالثة من الهجرة :

وفي رمضان عبّأ الرسول ﷺ جيشاً في المدينة لصد عدوان المشركين الذين كانوا يستعدون للثأر لقتلاهم في غزوة بدر .

* في السنة الخامسة من الهجرة :

استعداد الرسول ﷺ لغزوة الخندق إذ أن هذه الغزوة كانت في سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين وكان من الاستعدادات بل أهمها ما أشار به سلمان الفارسي من حفر الخندق حول المدينة ، وقد استغرق حفر الخندق كما يقول ابن القيم شهراً كاملاً وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع ، أما عمق الخندق فلم يكن أقل من سبعة أذرع والعرض كذلك فرضى الله عن الصحابة الجيل القرآني الفريد .

* في السنة السادسة من الهجرة :

في رمضان سرية غالب بن عبد الله المؤلفة من مائة وثلاثين مسلماً لقتال بني عبد الله ابن ثعلبة وكانوا قد أعلنوا عداوتهم للمسلمين ، فانتصر غالب عليهم وغنم كثيراً من الخيرات وساقها إلى المدينة .

* في السنة الثامنة من الهجرة :

في العشرين من رمضان كان الفتح الأعظم : « الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين ، من أيدي الكفار والمشركين وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً ، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً »[1] ودخل فيه رسول الله مكة ومعه عشرة آلاف من كتائب الإسلام وجنود الرحمن ، « وتهيأت مكة الحبيبة وكادت جبالها تزحف فرحاً لاستقبال الأمين البار الصابر المحتسب ﷺ ليعيد إلى ربوعها أشعة أنوار دين إبراهيم عليه السلام وأخذ التاريخ طرسه

---

(١) « زاد المعاد » (٢ / ١٦٠) .

ليسجل في زهوٍ تلك المفارقة العجيبة الرائعة التي تتجسد فيها أعظم العظات والعبر .

إن ما شهدته مكة في صباح ذلك اليوم التاريخي الأغرّ من مفارقات عجيبة رائعة إنما هو إحدى ثمار الثبات على العقيدة السليمة الدافعة كل شيء يعترض سبيلها حتى ولو كان الجبال الراسيات .

أية مفارقة أروع وأعظم مما كتبه التاريخ في ذلك اليوم الأغر ، فلقد كان رسول الله ﷺ ولسبع سنوات فقط أهون على قومه في مكة من أي شيء لديهم .

أجمعوا على قتله وهو بين ظهرانيهم بمكة وهم يعرفون كلهم أنه أبر وأشرف وأطهر وأنبل من عرفته بطحاؤهم .

قبل سبع سنوات فقط خرجت مكة كلها تبحث عنه في مطاردة جنونية مسعورة وكل فرد يمني بقتل هذا الرجل .

واليوم تذكر مكة ولا تنسى وهي تقف اليوم يرجف كبار مجرميها تحت رحمة عشرة آلاف محارب يقودهم هذا الرجل الذي أراد أهل مكة أن يجعلوا منه طريداً لا عودة له .

تذكر مكة ولا تنسى أن هذا الرجل إياه خرج منها وحيداً خائفاً يترقب ، يترصده الموت من كل مكان .

وها هو اليوم يعود إلى مكة الحبيبة مرفوع الرأس وضاح الجبين ، قد أحاطه الله بالعزة والمنعة وألبسه رداء السيادة ووضع في يده مقابض كل القيادة ، قد أحاط به بحر يموج بآلاف الفرسان وآلاف المشاة من جنود الله كلهم يفديه وتحوطه ملائكة السماء .

وجبريلٌ رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاءُ

يستقبلهم اليوم أهل مكة في ذلة وانكسار وأيدي كبار مجرميها تتحسس رؤوسهم خوفاً من أن تفصلها عن كواهلهم سيوف الرجل الطريد بالأمس والفاتح العزيز المنتصر اليوم [١] .

ولا شيء عنده إلا العفو الشامل لنبي من أولي العزم صفت نفسه وطهرت . ودخل

---

(١) « فتح مكة » لبشاميل (١٧١ - ١٧٣) .

رسول اللّه ﷺ مكة وهو يقرأ سورة الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً . إن رسول اللّه ليضع رأسه تواضعاً للّه حين رأى ما أكرمه اللّه به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل .

دخل رسول اللّه ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلثمائة نصب جعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد** ﴾ (١) .

وعند مسلم « أتى إلى صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه وفي يد رسول اللّه ﷺ قوس وهو آخذ بسيتها فلما أتى على الصنم فجعل يطعن في عينه ويقول : « **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** » .

وفي الأصنام معتبر وعلمٌ ... لمن يرجو الثواب أو العقابا

ويقول الشاعر :

لو قد رأيت محمداً وقبيلَهُ ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين اللّه أضحى بيّناً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

إن نصر اللّه يجيىءُ به اللّه في الوقت الذي يقدره ، في الصورة التي يريدها ، للغاية التي يرسمها ، وليس لأحد من أمره شيء ، وحسب الناس أن يقيمهم اللّه حراساً لدينه .

﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ [الإسراء : ٨١] .

يجيىء الحق بقوته وصدقه وثباته ، ويزهق الباطل ويندو فمن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق .

« **إن الباطل كان زهوقا** » .

فالباطل ينتفخ وينتفج وينفش ، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة ، ومن ثَمَّ يحاول أن يموه على العين ، وأن يبدو للعين عظيماً كبيراً ضخماً راسخاً ، ولكنه هش سريع العطب كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عالياً ثم تخبوا سريعاً وتستحيل إلى رماد بينما الجمرة الذاكية تدفئُ وتنفع وتبقى ، وكالزيت يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء .

---

(١) البخاري عن عبد اللّه بن مسعود .

إن الباطل إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وإسناد غير طبيعي ، فإذا تخلخلت تلك العوامل ، ووهت هذه الأسانيد تهاوي وانهار فأما الحق فمن عند اللّه الذي جعل الحق من أسمائه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء وإن وقفت ضده الأهواء والسلطان .

« **إن الباطل كان زهوقا** » ومن ورائه الشيطان ، ومن ورائه السلطان ، ولكن وعد اللّه أصدق وسلطان اللّه أقوى ، وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان ، إلا وذاق معه حلاوة الوعد وصدق العهد ، « ومن أوفى بعهده من اللّه ؟ ومن أصدق من اللّه حديثاً » (١) ؟!

لما سمع حماس بن قيس الديلي برسول اللّه ﷺ جلس يصلح سلاحه ، فقالت له امراته : لمن تعد هذا ؟ قال لمحمد وأصحابه ، فإني أرجو أن أخدمَك منهم خادماً فإنك إليه محتاجه .

قالت : ويحك لا تفعل ولا تقاتل محمداً ، واللّه ليضلنّ هذا عنك لو رأيت محمداً وأصحابه .

قال : سترين . وبعدها بقليل أقبل حماس منهزماً حتى أتى بيته فدقه ففتحت امرأته فدخل ، وقد ذهبت روحه ، فقالت : أين الخادم الذي وعدتني ما زلت منتظرتك منذ اليوم ، تسخر به .

قال : دعي عنك هذا أغلقي بابك فإنه من أغلق بابه فهو آمن ثم قال شعراً :

وأنت لو شهدتنا بالخندمه ... إذ فر صفوان وفرّ وعكرمه
وأبو يزيد كالعجوز المؤتمه ... إذ يلحقونا بالسيوف المسلمة
يقطعن كلّ ساعد وجمجمة ... ضربا فلا يُسمع إلا غمغمه
لهم زئير خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة (٢)

قال تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر اللّه والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين اللّه أفواجا ...** ﴾ [النصر : ١ ، ٢] .

قال ابنُ كثير : « والمراد بالفتح هنا فتح مكة قولاً واحد فإن أحياء العرب كانت

---

(١) « الظلال » (٤ / ٢٢٤٧ - ٢٢٤٨) .

(٢) « فتح مكة » محمد أحمد شاميل (ص ١٧٨ - ١٧٩) ، نقلاً عن سيرة ابن هشام (ج ٤/ ٥٠) ، و « مغازي الواقدي » (٢ / ٢٨٧) ، « البداية والنهاية » (٤ / ٢٩٧) .

تتلوم [(١)] بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة . وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي .

*** هدم الأصنام :-**

« هبل ... العزى ... سواع .... مناة » رمضان سنة ٨ هـ ، هدم اللات رمضان سنة ٩ هـ » .

* كان من فضل رمضان أن هُدّمت في أيامه الغرّ سائر الأصنام وقد كانت للأصنام في جزيرة العرب قصة مظلمة سوداء طمس ظلامها نور الإسلام ، وأزال قتامها إشراق الإيمان ، واسْتُخزت الأوثان ، واجتثت الأصنام .

ففي العشرين من رمضان سنة ثمان للهجرة ، دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحا ، وكانت الأصنام منصوبة حول الكعبة ، فأخذ طرف رمحه ، وجعل يطعنها في عيونها ووجوهها فتهوي تحت قدميه وهو يردد : ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ [الإسراء : ٨١] ثم أمر بها فكُفئت على وجوهها وأخرجت من المسجد وأضرمت فيها النار وكان على رأسها « هبل » .

هبل كان أعظم أصنامها في جوف الكعبة ، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان، وقد كان مكسور اليد اليمنى فجعلوا له يداً من ذهب فذهب هبل إلى مزبلة التاريخ ... وتلاشت من الوجود « اعلُ هبل » .

*وأرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في رمضان سنة ٨ هـ فهدم سواع .

*ومناة التي كانت الدماء تمنى عنده وتراق تقربا إليه وسموا أولادهم به ؛ من ذلك «عبد مناة » و « زيد مناة » وعظمته الأوس والخزرج كأشد تعظيم .

---

(١)تتلوم : أي تنتظر .

* في الرابع والعشرين من رمضان سنة ثمان للهجرة ، بعث الرسول عليه الصلاة والسلام سعد بن زيد الأشهلي إلى « مَنَاة » فهدمها ، ولم يجد في خزانتها شيئا .

* وفي الخامس والعشرين من رمضان سنة ٨ هـ أرسل رسول اللّه ﷺ خالد بن الوليد رضي اللّه عنه في ثلاثين فارسا من أصحابه ، وأمرهم بهدم « العزّى » وكان سدنتها وحجابها من بني « شيبان » فلما سمع سادنها بمسير خالد إليه ، علّق سيفا عليها وأنشدها قوله :

أَيَا عُزُّ شُدِّي شَدَّةً لا شَوَى [1] لَهَا ... على خالدٍ أَلْقِي القِناعَ وشمِّري

أَيَا عُزُّ إِنْ لم تَقْتُلي المرءَ خَالداً ... فبُوئي بإثمٍ عاجلٍ ، أَو تَنَصَّرِي

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يردد :

يا عُزُّ كُفرانَكِ لا سُبحانك ... إني رأيتُ اللّهَ قد أهانكِ

نعم .. أهان اللّه أكبر صنم كان يعبد من دون اللّه في جزيرة العرب عزى التي حمت لها قريش حرما ، وأقاموا عندها منحرا للهدي ، وبكى على يومه هذا سعيد بن العاص .. إذْ لمّا جاءه الموت دخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي ، فقال : ما يبكيك يا أبا أُحَيْحة ؟ أمن الموت تبكي ولا بدّ منه !! قال : لا ولكني أخاف ألا تعبد « العزّى » من بعدي قال أبو لهب : واللّه ما عُبدت في حياتك من أجلك ، حتى تترك عبادتها بعد موتك .

* وفي رمضان سنة تسع للهجرة وفدت ثقيف صاحبة « اللات » على الرسول ﷺ تعرض إسلامها عليه ، ويسألونه أن يترك لهم « اللات » ثلاث سنين لا يهدمها .. فأبى الرسول ﷺ ذلك ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم ذلك ، حتى سألوا شهرا واحدا، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمّى ، وأصرّ على هدمها ، فسألوه ألا يهدموها بأيديهم . فأرسل الرسول ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة لهدم « اللات » ، فلما بلغا « الطائف » خرجت نساء ثقيف حُسّراً يبكين آلهتهن ، ويندبنها ويزرين على رجالهن الذين أسلموها . ولما همّ المغيرة بهدمها قال لأبي سفيان : ألا أضحكك من ثقيف ؟ قال : بلى .... فأخذ الفأس وضرب به « اللات » ضربة واحدة ، ثم صاح وخرّ على وجهه

---

(١) أي لا تبقي على شيء .

كأنه صُعق ، فارتجّت الطائف بالصياح سروراً بأن اللات قد صرعت المغيرة ، وأقبلوا عليه يقولون :

ويحك ، كيف رأيتها ؟ إنها تُهلك من عاداها ... إنها تهلك من عاداها ، فقام المغيرة يضحك من القوم ، ثم أقبل على اللات يضربها بمعوله وهو يقول : « اللّه أكبر ، اللّه أكبر .. لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ... أحدٌ فردٌ صمد .

* وفي السنة التاسعة من الهجرة :

في رمضان كانت عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك المظفرة .

* وفي السنة الثالثة عشرة من الهجرة :

وفي رمضان كانت معركة « البويب » .

قال ابنُ كثير في « البداية والنهاية » (٧ / ٣٠) :

« وكانت هذه الواقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام » .

« فقد بعث أمراء الفرس جيشاً لهم بقيادة مهران واكتمل صف المسلمين تحت إمرة المثنى بن حارثه ، فتوافوهم وإياهم بمكان يقال له « البويب » قريب من مكان الكوفة اليوم وبينهما الفرات قالوا : إما أن تعبروا إلينا ، أو نعبر إليكم ، فقال المسلمون : بل اعبروا إلينا فعبرت الفرس إليهم فتوافقوا ، وذلك في شهر رمضان . فعزم المثنى على المسلمين في الفطر فأفطروا عن آخرهم ليكون أقوى لهم ، وعبأ الجيش وجعل يمر على كل راية من رايات الأمراء على القبائل ويعظهم ويحثهم على الجهاد والصبر والصمت وفي القوم جرير بن عبد اللّه البجلي في بجيلة وجماعة من سادات المسلمين . وقال المثنى لهم : إني مكبر ثلاث تكبيرات فتهيأوا ، فإذا كبرت الرابعة فاحملوا . فقابلوا قوله بالسمع والطاعة والقبول ، فلما كبر أول تكبيرة عاجلتهم الفرس فحملوا حتى غالقوهم . واقتتلوا قتالاً شديداً ، ورأى المثنى في بعض صفوفه خللاً فبعث إليهم رجلاً يقول : الأمير يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : لا تفضحوا العرب اليوم فاعتدلوا . فلما رأى ذلك منهم – وهم بنو عجل – أعجبه وضحك وبعث إليهم يقول : يا معشر المسلمين عاداتكم ، انصروا اللّه

ينصركم ، وجعل المثنى والمسلمون يدعون اللّه بالظفر والنصر . فلما طالت مدة الحرب جمع المثنى جماعة من أصحابه الأبطال يحمون ظهره ، وحمل على مَهران فأزاله عن موضعه حتى دخل الميمنة .

قال محمد بن إسحاق : وحمل المنذر بن حسان بن ضرار الضبي على مهران قائد الفرس فطعنه واحتز رأسه جرير بن عبد اللّه البجلي ، وهربت المجوس وركب المسلمون أكتافهم يفصلونهم فصلاً ، وسبق المثنى بن حارثه إلى الجسر فوقف عليه ليمنع الفرس من الجواز عليه ليتمكن منهم المسلمون . فركبوا أكتافهم بقية ذلك اليوم وتلك الليلة ، ومن بعد إلى الليل فيقال : أنه قتل منهم يومئذ وغرق قريب من مائة ألف وللّه الحمد والمنة وغنم المسلمون مالاً جزيلاً وطعاماً كثيراً ، وبعثوا بالبشارة والأخماس إلى عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - وقد قتل من سادات المسلمين في هذا اليوم بشر كثير أيضاً ، وذلت لهذه الموقعة رقاب الفرس ، وتمكن الصحابة من الغارات في بلادهم فيما بين الفرات ودجلة فغنموا شيئاً عظيماً لا يمكن حصره .

قال الأعور العبدي :

هاجت لأعورَ دارُ الحي أحزانا ... واستبدلت بعد عبد القيس حسانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع ... إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
إذا كان سار المثنى بالخيول لهم ... فقتّل الزحف من فرس وجيلانا
سما لمهران والجيش الذي معه ... حتى أبادهم مثنى ووحدانا [1]

فتح النوبة ومعاهدة القبط سنة ٣١ هـ :

« سينقلنا الحديث إلى منطقة من مناطق المسلمين لنتعرّف على بداية دخول الإسلام لها بعد معركة من معارك المسلمين العظيمة تمخضت عن عهد كان له عظيم الأثر في انتشار الإسلام في تلك البقاع .

أما المنطقة فهي بلاد النُّوبة الواقعة جنوب مصر ، وأما قائد هذه المعركة فهو الصحابيّ الجليل عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح .

---

(١) « البداية والنهاية » (٧ / ٢٩ - ٣٠) .

بدأت علاقة المسلمين بهذه المنطقة بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص – رضى الله عنه – ، فقد أرسل حملة إلى بلاد النوبة بقيادة عقبة بن نافع الفهري رحمه الله فدخل تلك البلاد ، ولقي المسلمون قتالاً شديداً ، حيث كان النوبيون يُجيدون الرمي بالسهام فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم ، فانصرف المسلمون وقد فقئت حدق الكثير منهم من جراء النبل ولذا سموهم « رماة الحدق » ، وتمخض عن هذه الحملة عقد صلح بينهم وبين المسلمين تقررت من جرائه الهدنة .

وظلَّ الوضع على ذلك حتى تولى ولاية مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضى الله عنه – ، فنقض النوبيون الصلح وهاجموا صعيد مصر وأفسدوا فيه ، فخرج عبد الله بن أبي سرح بجيش تعداده عشرون ألفا وتوغل في بلادهم جنوبا ووصل عاصمتهم دنقلة فحاصرها حصارا شديدا ورماها بالمنجنيق وضيق على أهلها حتى اضطروا للتسليم ، وطلب ملكهم « قليدور » الصلح ، وخرج إلى عبد الله ابن أبي سرح ، وأبدى ضعفا ومسكنة وتواضعاً فتلقاه عبد الله وقرر الصلح معه وعقدت بين الجانبين معاهدة فريدة من نوعها ، كان لها عظيم الأثر على عملية انتشار الإسلام في شرق القارة الإفريقية ، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة احدى وثلاثين هجرية .

وجاء في هذه المعاهدة :

« عهدٌ من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته : عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة ، من أرض أسوان إلى حد أرض علوة أن عبد الله جعل لهم أماناً وهدنة :

إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد ﷺ أن لا نحاربكم ، ولا نَنْصُبَ لكم حرباً ، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم » .

ثم يعدد العهد الشرائط تلك ومنها :

– عليكم حفظ من نزل بلادكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم .

– وعليكم ردُّ من لجأ إليكم من مسلم محارب للمسلمين وأن تخرجوه من بلادكم .

– وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه

مصليا، ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن ينصرف عنكم ، وعليكم كنْسه وإسراجه وتكرمته .

- وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم .

علينا بذلك عهد اللّه وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به ... اللّه الشاهد بيننا وبينكم . وكتب عمر بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين هجرية .

هذا هو عقد الصلح الذي تم بين المسلمين وبين النوبة ، وإذا نحن تمعنَّا في بنوده وجدناها عوامل مهمة لنشر الإسلام في تلك البلاد .

ولربما كان عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح قد أدرك صعوبة فتح تلك المناطق لوعورة تضاريسها ولشدة أهلها في القتال ، فأراد أن يوفر بهذه المعاهدة مناخاً مناسباً لانتشار الإسلام بصورة سلمية .

ولقد حصل هذا فعلاً فظلت المعاهدة أساسا للعلاقات بين المسلمين وبين النوبة حتى انتشر الإسلام فيها ، وأصبحت بذلك جزءاً من العالم الإسلامي .

ولنعد إلى بنود المعاهدة لنرى أثرَها في ذلك .

كان من أول الشروط التي اشترطها عبد اللّه – رضى اللّه عنه – حفظ من دخل النوبة من المسلمين وهو بهذا يضمن سلامة الدعاة المسلمين ، وكذلك التجار ، فيدخلون إلى تلك المناطق ، ويقومون بدعوة أهلها إلى الإسلام دون عوائق .

حيث إنهم تحت حماية الدولة الإسلامية ، ولو كانوا خارج حدودها في بلاد النوبة . واستفاد الدعاة من هذا الشرط ، وتوغّلوا في تلك البلاد حتى وصلوا الحبشة وأواسط السودان الحالية ، واستطاعوا تحويل أهلها إلى الإسلام .

ومن الشروط كذلك : حفظ المسجد الذي بني خارج عاصمة النوبة « دنقلة » بل واشترط عليهم كنسه وإسراجه وتكرمته وعدم منع المسلمين من الصلاة أو الإقامة فيه .

وهكذا ضمنت هذه المعاهدة بقاء مركزٍ للدعوة الإسلامية في تلك البلاد النصرانية ، ذلك أن المسجد هو منطلق الدعوة ومركزها ، وكان أول عمل يقوم به الدعاة هو بناء المساجد ومن ثم تبدأ الدعوة منها ، ولا زال المسجد يقوم بدور كبير في القارة الأفريقية حتى الآن ، بمعنى أنه يؤدي وظيفته الحقيقية . وقد ظلَّ مسجد « دنقلة » الذي بناه المسلمون منذ سنة إحدى وثلاثين هجرية فترة زمنية طويلة يؤدي رسالته في الدعوة الإسلامية ، ويؤمه الدعاة من مختلف أقطار العالم الإسلامي فيستقرون فيه أو حوله ويدعون الناس إلى الإسلام مما كان له عظيم الأثر في تحطيم الوجود النصراني والقضاء عليه .

وفي الشرط الأخير من شروط المعاهدة تعهد النوبيون بدفع ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق إلى والي المسلمين ، ولقد كانت النوبة منذ القدم تشتهر بتصدير هؤلاء الرقيق فرأى قائد المسلمين عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح أن يستأثر بهؤلاء الرقيق للدولة الإسلامية ، فإذا سُلِّموا للمسلمين أصبحوا مماليك دولة لا رقيق :أفراد ، وينتج عن ذلك عدد من النتائج :

فهؤلاء يتحولون إلى الإسلام وينقذون من الكفر والضلال لأنهم في الأصل إما من النصارى أو الوثنيين ، ولذلك فقد قال أحدهم لتاجر أوروبي لقيه في مصر : إننا في الحقيقة لا نأتي من الحرية للرق ، بل إننا نأتي من الرق الحقيقي والعبودية للبشر لنصبح أحراراً بالإسلام ، وقد كان لهؤلاء بعد إسلامهم شأن في الدولة الإسلامية فكان منهم الجند والوزراء بل والولاة أحيانا ، وبعض هؤلاء يؤثر العودة إلى موطنه بعد إسلامه فيعود إليها داعياً للإسلام ، وهكذا فلم يمض القرن الثامن الهجري حتى أصبحت بلاد النوبة كلها بلاداً إسلامية وأهلها قد اعتنقوا الإسلام ، وذلك بطريقة سلمية جراء تأثير بنود هذه المعاهدة ، وفي هذا ما يدحض تلك الفرية التي طالما ردَّدها الغربيون وتلامذتهم وهي أن الإسلام لا ينتشر إلا بالقوة والسيف .

رضي اللّه عن عبد اللّه بن أبي سرح الذي مهَّد الطريق لنشر الإسلام في تلك البقاع » [1] .

---

(١) « من معارك المسلمين في رمضان » للدكتور عبد العزيز بن راشد العبيدي (ص ٣٩ - ٤٢) - مكتبة العبيكان وانظر « فتوح البلدان » للبلاذري (ص ٣٣١) ، و« الخطط » للمقريزي (١ / ٢٠٠) ، و« فتوح مصر » لابن عبد الحكم (ص ١٨٨) .

فتح جزيرة رودس سنة ٥٣ هجرية :

*في رمضان سنة ٥٣ هـ « افتتح المسلمون وعليهم جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس وأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شيء على الكفار يعترضون لهم في البحر ويقطعون سبيلهم »[1] .

سنة ٦٧ هـ زالت دولة المختار الثقفي :

قتل المختار في رابع عشر رمضان سنة سبع وستين هجرية .

ركب مصعب بن الزبير والي البصرة على رأس جيش لملاقاة جيش المختار فقطعوا دجله إلى الكوفة واقتتلوا قتالاً شديداً إلى الليل وقتل أعيان المختار وتفرق أصحاب المختار عنه « وأشار عليه جماعة من أساورته أن يدخل القصر دار إمرته ، فدخله وهو ملوم مذموم ، وعن قريب ينفذ فيه القدر المحتوم ، فحاصره مصعب فيه وجميع أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما اللّه به عليم وضيق عليهم المسالك والمقاصد ، وأفسد عليهم أبواب الحيل، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم ، ثم جعل المختار يحيل فكرته ، ويكرر رويته في الأمر الذي قد حلّ به واستشار من عنده في هذا السبب السيىء الذي قد اتصل سببه بسببه من الموالي والعبيد ، ولسان القدر والشرع يناديه ﴿قل جاء الحق و ما يبديء الباطل وما يعيد﴾[سبأ : ٤٩] ، ثم قوي عزمه قوة الشجاعة المركبة فيه على أن أخرجته من بين مَن كان يحالفه ويواليه ، ورأى أن يموت على فرسه ، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه ، فنزل حمية وغضباً ، وشجاعة وكلباً ، وهو مع ذلك لا يجد مناصاً ولا مفراً ولا مهرباً وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر ، ولعله إن كان قد استمر على ما عاش عليه أن يفارقه التسعة عشر الموكلون بسقر ، ولما خرج من القصر سأل أن يخلى سبيله فيذهب في أرض اللّه فقالوا له إلا على حكم الأمير ، والمقصود أنه لما خرج من القصر تقدم إليه شقيقان أخوان وهما طرفة وطراف ابنا عبد اللّه بن دجاجه فقتلاه بمكان الزياتين من الكوفة واحتزا رأسه وأتيا به مصعب بن الزبير زالت دولة المختار ، وكذلك سائر الدول ، وفرح المسلمون بزوالها

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ٦٣) .

وذلك لأن الرجل لم يكن في نفسه صادقاً ، بل كان كاذباً يزعم أن الوحي يأتيه على يد جبريل ولما دخل زيد بن الأرقم عليه قال له : يا أبا عامر لو شفت رأي جبريل وميكائيل ، فقال له زيد ، خسرت وتعست ، أنت أهون على اللّه من ذلك ، كذاب مفترٍ على اللّه ورسوله [١] .

وفي حديث أسماء عند أحمد أن أسماء قالت للحجاج « واللّه لقد أخبرنا رسول اللّه ﷺ أنه سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول » .

وعند مسلم عنها أن رسول اللّه ﷺ قال : « **إن في ثقيف كذاباً مبيرا** » .

قال ابن كثير : « وقد ذكر العلماء أن الكذاب هو المختار بن أبي عبيد ، وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة ، وأسر إلى أخصائه أنه يوحى إليه ، ولكن ما أدري هل كان يدعي النبوة أم لا ، وكان قد وضع له كرسي يعظم ويحف به الرجال ، ويستر بالحرير ويحمل على البغال ، وكان يضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن ، ولا شك أنه كان ضالاً مضلاً أراح اللّه المسلمين منه » [٢] .

« روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني عنده ، وكان يتعاهد مبيتي بالليل قال : فقال لي : اخرج فحدّث الناس ، قال : فخرجت فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي ؟ فقلت : الوحي وحيان قال اللّه تعالى : ﴿ **بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ [يوسف : ٣] ، وقال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، قال : فهموا أن يأخذوني فقلت : ما لكم وذاك ! إني مفتيكم وضيفكم ، فتركوني ، وإنما أراد عكرمة أن يعرّض بالمختار وكذبه في ادعائه أن الوحي ينزل عليه » .

وقد قيل لابن عمر : إن المختار يزعم أن الوحيَ يأتيه ، فقال صدق قال تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ [الأنعام : ١٢١] [٣] .

---

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ٢٩٠ - ٢٩٥) .
(٢) « البداية والنهاية » (٨ / ٢٩٥) .
(٣) « البداية والنهاية » (٨ / ٢٩٤) .

غزوة طريف سنة ٩١ هجرية :

بعث موسى بن نصير رجلاً من البربر يسمى طريفاً (*) ويكنى بأبي زرعة ، في مائة فارس وأربعمائة راجل فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر بالأندلس فيما يحاذي (طنجه) وهو المعروف اليوم بـ (جزيرة طريف) سميت باسمه لنزوله هناك فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبياً ومالاً كثيراً ورجع سالماً أو كانت أجازته في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين هجرية » [1] .

فتح الأندلس في رمضان سنة ٩١ هـ :

على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير .

يقول المقري في « نفح الطيب » : « ذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب فرأى في منامه النبي ﷺ ، الخلفاء الأربعة أصحابه - رضي اللّه عنهم - يمشون على الماء حتى مرّوا به ، فبشره النبي ﷺ بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد .

وقيل : إنه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبي ﷺ ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى فيقول له رسول اللّه ﷺ : يا طارق تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّامه ، فهبّ من نومه مستبشراً ، وبشر أصحابه وثابت إليه نفسه ثقة ببشراه ، فقويت نفسه ولم يشك في الظفر » وعسكر لزريق ملك أسبانيا مائة ألف وجيش طارق اثنا عشر ألف وفي وادي (لكه) يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ونصر اللّه المسلمين نصراً لا كفاء له ، واتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال وهزم اللّه المشركين ، فقتل منهم خلق كثير ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبّسه لتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتيم الفضة ويميزون عبيدهم بخواتيم النحاس .

(*) طريف بن ملوك المعافري هكذا سماه الحميدي ، ويسميه المقري : طريف البربري ، ويسميه ابن خلدون : طريف ابن مالك النخعي .

(١) « قادة فتح المغرب العربي » (ص ٢٤٤ - ٢٤٥) نقلاً عن « البيان المعزب » (٢ ، ٦) - « نفح الطيب » (١ / ٢١٤) .

ورمى « لُذرَيق » نفسه في وادي (لكه) وقد أثقله السلاح ، فلم يعلم له خبر ولم يوجد ، وقالوا إن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الذي فقدوه وراكبه وقد ساخ الفرس طين وحمأه ، وغرق العلج ولم يوجد حياً ولا ميتاً .

يقول طارق بن زياد في فتح الأندلس :

ركبا سفينا بالمجاز مُقيّرا عسى أن يكون الله مناقد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنةٍ إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسّرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

رحم الله طارقاً .. مولى موسى .. معذرة بل سيد من السادات وغيره العبيد وإن كان ملوكاً سيقوا إلى مدريد في يوم احتفالهم بخروج المسلمين ليكتبوا وثيقة الذل والعار مع اليهود والصليبيين .

وقفة على أبواب مدريد

عذراً رُبى المجد ، إنَّ القومَ قد هانوا وإنهم في أيادي المعتدي لانوا
عذراً فما ردَّهم عمَّا يُحاك لهم وعيٌ ، ولا ردَّهم دينٌ وقرآنُ
عذراً فأروقة الأحزان حافلة وساحة الفرح المقتول قيعانُ
عذراً فبحر المآسي لم يزلْ لجباً يموج في مائه قرشٌ وحيتانُ
عذراً فإنَّ بلاد العرب لاهيةٌ تضجُّ في صدرها عبسٌ وذبيانُ
أما ترين روابي الشعر هامدةً فمالها اليوم أوراقٌ وأغصانُ
قصيدتي ذَبُلتْ ممّا يداهمها من الجفاف ، وطرف الشعر سهرانُ
تنكّبتْها غيومُ اللحن ، ما ابتهجتْ خصباً، ولا استبشرت بالغيث أفنانُ
ولوحة الصمت ، فيها ألفُ دائرة مرسومة ، ما لها في الفنِّ ميزانُ
ما لامستها يدٌ بالرسم ماهرةٌ ولا سقاها شرابَ الحبر فنَّانُ
رأيتُ فيها خطوطاً لا حدودَ لها وليس يفهمها إنْسٌ ولاجَانُ

رأيت في بعضها رأساً أشبِّهه ... بحيَّة ، شدَّها للخلف ثعبانُ
رأيت غصناً من الزينون تأكله ... رصاصةٌ ، ووراءَ الغصن « كاهانُ »
من حوله أحرفٌ عِبْريّةٌ نُقشتْ ... وليس فيها عن الألغاز تبيانُ
كان الغبارُ يُواريها ، وحين جلا ... بدا لعينيَّ شاميرٌ و « ديَّان »
ولاح لي في مداها وجهُ أندلسٍ ... جبينهُ لسباق الحزنِ ميدانُ
يا وجهَ أندلسٍ ، في أُفْقنا سحبٌ ... من الدخان ، وفي الأدغال بركانُ
طارت إليك وفود العرب ، في فمها ... بوقٌ ، وبين يديها الطبلُ رنَّانُ
شاميرُ يسخر منهم ، من تطلُّعهم ... إلى السراب ، ألا فَلْيَروْ ظَمآنُ
لو أبصرتهم عيون الداخل امتلأتْ ... قذىً، وأغضتْ على الأشواك أجفانُ
ولو رأى طارقٌ تلك الوجوهَ ، لَمَا ... عصاه سيفٌ ، ولا عاقتْه أكفانُ
كأنني بقلاع المجد قد وجمتْ ... لمَّا أتاها بروح الذلِّ « عُربانُ »
يا بؤسَها أمةً يسعى بحاجتها ... لصٌّ ، وبائع أفيون ، وسجَّانُ
تُدعى إلى الملتقى باسم السلام ، ولم ... يُرفع لها بين أهل الملتقى شانُ
يقام حفلٌ لها من حُرِّ ثروتها ... ولم يُقدم لها في الحفل فنجانُ
يابؤسها أمةً ، في الحرب خاسرةٌ ... ولا يفارقها في السلم خُسرانُ
إن حاربتْ شربتْ كأس الهزيمة في ... ذلٍّ ، وإنْ فاوضت فالذلُّ ألوانُ
أنَّى تقوم لها في الكون قائمةٌ ... وقلبها غارق في الوهم حيرانُ
يا من رحلتم إلى مدريدَ ، قربتُكم ... مخروقة ، وجِرَابُ الخصم ملآنُ
بشراكم اليومَ ، إسرائيل راضيةٌ ... عنكم ، وفي قلبها شكر وعرفانُ
بشراكم اليوم ، أمريكا تبجّلكم ... وفي يدَي روسيا « فلٌ وريحانُ »
أما فلسطين ، والأقصى وأمتكم ... فما لها عندكم قدرٌ ولا شانُ

يا من رحلتم إلى مدريد ، أمتكم | بريئة ، وادّعاءُ السِّلم بُهتانُ
القدس أكرم عند اللّه منزلةً | من أنْ يطهِّرها لهوٌ وعصيانُ
القدس أعظم عند اللّه منزلةً | من أن يخلِّصِها ذلٌ وإذعانُ
سلام أعدائكم حرب معلَّبةٌ | في علبة الوهم ، والبرهانُ لبنانُ
لو كان شامير إنساناً لضلَّلكم | فكيف ، وهو على التحقيق شيطانُ
إنا ننادي ، وللتاريخ حَمْحَمَةٌ | من حولنا ، وفؤاد المجد غضبانُ
يا مجلس الذلِّ في مدريدَ لا نظرتْ | عينٌ ، ولا سمعت دعواكَ آذانُ
لنا طريقٌ إلى العلياء نعرفه | يشدو به حجر في القدس صَوَّانُ
يشدو به الطفل لحناً لا يقاومه | صوت الرصاص ، ولا تُخفيه حيطانُ
يا مجلس الذلِّ في مدريدَ منهجُنا | قد صاغه في رُبى باميرَ أفغانُ
طريقنا واضحٌ كالشَّمس ، تعرفه | أجيالُنا ، بابُه عزمٌ وإيمانُ
آمالُنا لم تزل خضرَاءَ يانعةً | في القلب منتجع منها وبُستانُ
وليُّنا اللّهُ لا نرضى به بدلاً | وكيف ييأس مَنْ مولاه رحمانُ(١)

فتوح المسلمين في فرنسا سنة ١٠٢ هـ :

بعد أن استقر المسلمون في الأندلس ، بدأت غزواتُهم تتجه نحو الشمال فيما وراء جبال البرانس الفاصلة بين الأندلس وفرنسا ، وتولى قيادة الجيوش الإسلامية آنذاك عدد من القادة المسلمين الذين تفرّغوا للجهاد في سبيل اللّه فمات أكثرهم في ساحات القتال ، رحمهم اللّه .

بدأت الفتوح في تلك المناطق في عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير ، الذي تولى الأندلس بعد رحيل والده ، ولم تحدد المصادر التاريخية مدناً أو نواحي معينة فتحها . وتوالى الولاة على الأندلس حتى إذا تولى السَّمح بن مالك الخولاني اتجه نحو الجهاد في

(١)من ديوان « عندما تشرق الشمس » لعبد الرحمن العشماوي (ص ٢٤ - ٢٧) .

جنوب فرنسا ، والحقيقة أن هذا الوالي كان من أفاضل عربِ أفريقية ، ولّاه الخليفة عمر بن عبد العزيز ولاية الأندلس لما عرف عنه من الأمانة وحسن الخلق وذلك في شهر رمضان سنة مائة هجرية وطلب منه تنظيم البلاد وضبط أموالها ، فسار في ذلك سيرة حسنة .

وفي عهده نشطت حركة الفتوح فيما وراء جبال البرانس ، الفاصلة بين الأندلس وفرنسا ، لأنه كان رجلاً وثيق الإيمان جمَّ النشاط ، فانطلق بجيشه في عام اثنين ومائة وفتح إقليم « سبتمانيا » ، وهي المنطقة الساحلية التي تمتد من البرانس غرباً إلى مصبِّ نهر الرون شرقاً ، وتتصل بما يعرف اليوم بالريفيرا الإيطالية ، كما أنها تُطلُّ على البحر الأبيضِ جنوب فرنسا ، وكانت تشمل سبعة أقسام إدارية وعاصمتها « أربونة » ، وقد استولى السمح على هذه العاصمة بعد شهر من الحصار ، واتخذها مركزاً وقاعدة لعملياته الحربية في فرنسا ، ولا يزال يوجد بهذه المدينة شارع يُنسب إليه ويعرف « بشارع السمح » .

انطلق السمح بعد ذلك يفتح كل المدن التي بطريقه حتى وصل إلى « طُولوشة عاصمة أكويتانيا » فحاصرها ، غير أنها قاومت الحصار ، حتى وصلتها الإمدادات وعلى رأسها حاكم الإقليم الدوق أود الفرنجي ، فتجمع للنصارى جيش كبير يفوق جيش المسلمين عدداً وتجهيزا، فوقف السمح في جنوده يُحمِّسهم ويشد من أزرهم ويقرأ قول اللّه تعالى : ﴿ إن ينصركم اللّه فلا غالبَ لكم ﴾ [آل عمران : ١٦٠] وحدثت معركة عنيفة بين المسلمين والنصارى أواخر سنة اثنتين ومائة هجرية ، واشتد القتال بين الجانبين وصبر المسلمون صبراً كريماً ، وأصاب قائدهم سهم قاتل فاستشهد في يوم عرفة ، وفتَّ ذلك في عضد الجند فتراجعوا عن طولوشة واستطاع واحد من قادته وهو عبد الرحمن الغافقي الارتداد بهم إلى أربونة بعد أن قُتل منهم عدد كبير .

خلف السمح على ولاية الأندلس عنبسة بن سُحيم الكلبي ، وواصل الغزو في فرنسا الجنوبية ، فسار على الساحل حتى وصل إلى « قرقشونة » فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى نزل أهلُها على شروطه ، فتنازلوا له عن البلد ونصف الإقليم المحيط به ، وتعهدوا بردِّ أسرى المسلمين الذين كانوا عندهم ، وبأن يدفعوا الجزية ، ويلتزموا بأحكام أهل الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه ، وأخذ منهم عنبسة بعض الرهائن وأرسلها إلى « برشلونة » .

وواصل عنبسة - رحمه الله - سيره ، ووجد الطريق أمامه خالية ، فسار مسرعاً دون أن يلقى مقاومة ، وصعد حتى أدرك نهر الساءون فاستولى على أوتون ، واستمر في زحفه الظافر فقذف الله في قلوب الكفار الرعب فلم يتصد أحد منهم للمسلمين إلا لطلب الصلح ، واجتاح المسلمون مدينة أوزه ، وفيين ، وفالنسي ووصلوا إلى مدينة ليون التي يسميها العرب « حصن لودون » ، كذلك زحفوا على مدينة ماسون ، وشالون ، ووصلوا إلى مدينة « سانس » عاصمة إقليم « يوند » على بعد ثلاثين كيلوا متراً فقط جنوبيّ باريس ، وقد تصدت هذه المدينة للزحف الإسلاميّ فكانت آخر ما وصل إليه المسلمون .

ويبدو أن القائد المسلم عنبسة بن سُحيم قد أدرك بعد هذا التقدم الظافر الذي جعله يقترب من باريس أنه توغل في قلب فرنسا أكثر مما ينبغي ، فقد طالت خطوط العودة فخشى أن تقطع عليه بعد أن ابتعد مسافة ألف ميل شمالي قرطبة ، كما أن أحوال الأندلس قد بدأت تتغير بظهور العصبيات المختلفة ، مما دعاه إلى العودة بعد هذا النصر العظيم .

وقد أثارت هذه الفتوح المخاوف في نواحي فرنسا ، وارتاعت معظم الدوقيات وشعرت مملكة الفرنج أنها أمام خطر حقيقي ، وبدا واضحا أن الحملة المقبلة ستكون حملة حاسمة .

والحقيقة أن أحوال الأندلس في ذلك الوقت قد أثرت كثيراً على هذه الفتوح الإسلامية ، ولولاها لما توقف عنبسة عن فتوحه الموفقة تلك . وفي طريق العودة داهمت جيشَ المسلمين جموع كبيرة من الفرنجة وجرح عنبسة بجروح بليغة توفى على إثرها في شهر شعبان سنة سبع ومائة هجرية ، بعد أن نشر الرعب في نواحي فرنسا ووصل برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربيّة ، وكفاه ذلك فخراً حيث لم يدرك هذا الشأو بعد ذلك قائد مسلم آخر [1] .

سنة ٢٢٢ هـ فتح البذ مدينة « بابك الخرمي » :

جهّز المعتصم جيشاً كثيراً للأفشين على محاربة « بابك » وبعث إليه ثلاثين ألف ألف

---

(١) « من معارك المسلمين في رمضان » (ص ٥٠ - ٥٢) .

درهم نفقة للجند ، فاقتتلوا قتالاً عظيماً ، وافتتح « الأفشين » « البذ » مدينة « بابك » واستباح ما فيها وذلك يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان وذلك بعد محاصرة وحروبٍ شديدة وقتالٍ شديد وجهدٍ جهيد ثم بعد ذلك أمسكوا « ببابك » بعد فراره من دار ملكه .

وقد كان المعتصم شديد العناية بأمر هذا اللعين الذي قتل من المسلمين في مدة ظهوره وهي عشرون سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألف وخمسمائة إنسان .

قاله ابن جرير وأسر خلقاً لا يحصون وكان من جملة من استنقذه « الأفشين » من أسره نحواً من سبعة آلاف وستمائة إنسان . أراح اللّه المسلمين من شره بعد ما افتتن به خلق كثير وجم خفير من العوام الطغام [1] .

« ولقد توج المعتصم « الأفشين » [2] وقلده وشاحين من جوهر ، وأطلق له عشرين ألف درهم ، وكتب له بولاية « السند » وأمر الشعراء أن يدخلوا عليه ويمدحوه على ما فعل من الخير للمسلمين وعلى تخريبه بلاد بابك التي يقال لها « البذ » وتركه إياها قيعانا خراباً ، فقالوا في ذلك فأحسنوا وكان من جملتهم أبو تمام الطائي قال :

بـذ الجلاد الـبـذُ فـهـو دفـينُ ... ما إن بها إلا الوحوش قطين

لم يقر هذا السيف هذا الصبر ... في هيجاء إلا عزّ هذا الدينُ

قد كان عذرة سؤددٍ فافتضها ... بالسيف فحل المشرق الأفشين

فأعادها تعوي الثعالب وسطها ... ولقد ترى بالأمس وهي عرينُ

هطلت عليه من جماجم أهلها ... ديم إمـارتـهـا طـلـىً وشـؤون

كانت من المهجات قبل مفازة ... عسراً فأضحت وهي منه معين

سنة ٢٢٣ هـ فتح عمورية على يد المعتصم :

« في هذه السنة أوقع ملك توفيل بن ميخائيل بأهل سلطنته من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة ، قتل فيها خلقاً كثيراً من المسلمين ، وأسر ما لا يحصون كثرة ، وكان من

---

(١) « البداية والنهاية » (ج ١٠ / ٢٩٥) .

(٢) كان مجوسياً فكتم مجوسيته أشتهر أمره وافتضح بعد ذلك .

جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل أعينهم - قبحه الله - .

ولما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير ، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقه ، وثلثه لولده ، وثلثه لمواليه وخرج بالجيش إعانة للمسلمين فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وشمر راجعاً إلى بلاده وتفارط ولم يمكن الاستدراك فيه ، فقال للأمراء أي بلاد الروم أمنع ؟ فقالوا : عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام وهي عندهم أشرف من القسطنطينية » [1] فعزم على فتحها .

رب وامعتصماه انطلقت	ملء أفواه الصبايا اليتم
صادفت أسماعنا لكنها	لم تصادف نخوة المعتصم

تجهّز المعتصم جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء ، وأخذ معه آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله ، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال وقدم المعتصم إليها صبيحة يوم الجمعة لستٍ خلون من رمضان فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها ، وقد تحصّن أهلها تحصيناً شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح ، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة ، وقسم المعتصم الأبراج بالأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي أقطعه وعينه له ، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين ، وكان قد تنصّر عندهم وتزوج منهم ، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الإسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبنى بناءً ضعيفاً بلا أساس ، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي دلهم عليه ذلك الأسير فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألحّ عليها المنجنيق فجعلوا فوقها البرادع ليردوا حرة الحجر فلم تغن شيئاً وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسّخ . فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك ، وبعث ذلك مع

---

(١) « البداية والنهاية » (١٠ / ٢٨٩ - ٢٩٩) .

غلامين من قومهم فلما اجتازوا الجيش في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما من أنتما ؟ فقالا : من أصحاب فلان لأمير سموْه من أمراء المسلمين ، فحملا إلى المعتصم فقررهما فإذا معهما كتاب من « مناطس » نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار ، وأنه عَازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائناً في ذلك ما كان . فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما ، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة ، فأسلما من فورهما ، فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع ، وأن يوقفا تحت حصن « مناطس » فينثر عليهما الدراهم والخلع ، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما ، ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة ، فضاقت الروم ذرعاً بذلك ، وألحّ عليهم المسلمون في الحصار ، وقد زاد المعتصم في المجانيق والدبّابات وغير ذلك من آلات الحرب ، ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها ، أعمل المجانيق في مقاومة السور وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويجيء بملء جلده تراباً فيطرحه في الخندق ، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً ، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج اللّه إلى ذلك ، وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنّها من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة ، فبعث المعتصم من نادى في الناس : إنما ذلك سقوط السور ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً لكن لم يكن ما هدم يسع الخيال والرجال إذا دخلوا ، وقويَ الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه ، فضعفَ ذلك الأمير [١] - وندوا - الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار فذهب إلى مناطس [٢] فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا : لا نترك ما نحن موكلون بحفظه .

---

(١) اسمه عند ابن جرير في تاريخه (٥ / ٢٤١) وتفسيره بالعربية « الثور » .

(٢) عند ابن جرير اسمه « ياطس » .

« قال « وندوا » : إن الحرب عليّ وعلى أصحابي ، ولم يبق معي أحد إلا جرح ، فصيّروا أصحابكم على الثلمه يرمون قليلاً وإلا افتضحتم . وذهبت المدينة فأبوا أن يمدوه بأحد » [١] .

فلما يئسَ منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به (ليطلب الأمان على الذرية) فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت من المقاتلة ، فركب المسلمون وتقدموا إلى الثملة ، ولم يقدر الروم على دفع المسلمين بعد أن تكاثروا ودخلوا المدينة قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم وقد حشروهم في كنيسة هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم ، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب وهو مناطس في حصن منيع فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه « مناطس » فناداه المنادي ويحك يا مناطس ! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك فقالوا : ليس بمناطس ها هنا مرتين ، فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس : هذا مناطس ... هذا مناطس ، فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلع عليه الحسن الرومي [٢] فقال له : ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين ، فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جِيءَ به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشى إلى مضرب الخليفة مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل فأوثق هناك . وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله ، وأمر المعتصم بإحراق ما بقى من ذلك ، وبإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بها الروم على شيء من حرب المسلمين » [٣] .

سنة ٢٦٤ هـ ١٤ رمضان سقوط سرقوسة من جزيرة صقلية :

سقطت سرقوسة في يد المسلمين في ١٤ رمضان سنة ٢٦٤ هـ ٢١ مارس

(١) « تاريخ الطبري » (٥ / ٢٤١) .

(٢) اسمه من تاريخ ابن جرير (٥ / ٢٤١) .

(٣) « البداية والنهاية » بتصرف (١٠ / ٢٩٩ - ٣٠١) .

سنة ٨٧٨ م ، على يد جعفر بن محمد بعد حصار دام تسعة شهور براً وبحراً ، وهزم جعفراً أسطولاً رومياً جاء لنجدتها وظفر بأربع قطع بحرية منه ، وكان سقوطها كارثة كبرى لبيزنطة وسياستها الحربية ، فقد انهارت الجهود الجبارة التي بذلتها سنوات طويلة لإعادة النفوذ البيزنطي على ساحل البحر الأدورياتي » [١] .

سنة ٥٥٩ هـ وقعة حارم :

« فتحت في رمضان من هذه السنة ، وذلك أن الملك نور الدين محمود زنكي استغاث بعساكر المسلمين فجاؤه من كل فج ليأخذ ثأره من الفرنج فالتقى معهم على حارم فكسرهم كسرة فظيعة ، وأسر البرنس بيمند صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس ، والدوك صاحب الروم ، وابن جوسليق ، وقتل منهم عشرة آلاف وقيل عشرين ألفاً » [٢] .

سنة ٥٨٤ هـ رمضان فتح الكرم وصفد :

بعد أن عاد صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق في أوائل رمضان وجاءته البشائر بفتح الكرم وإنقاذه من أيدي الفرنج ، وأراح اللّه منهم تلك الناحية ، وسهل حزنها على السالكين من التجار والغزاة والحجاج ﴿ فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد للّه رب العالمين ﴾[الأنعام : ٤٥] .

ولم يقم السلطان بدمشق إلا أياماً حتى خرج قاصداً صفد فنازلها في العشر الأوسط من رمضان ، وحاصرها بالمجانيق ، وكان البرد شديداً ، يصبح الماء فيه جليداً ، فما زال حتى فتحها صلحاً في ثمان شوال » [٣] .

سنة ٦٥٨ هـ الجمعة ٢٥ رمضان وقعة « عين جالوت » :

أو هكذا ننسى المفاخر مثلما ... يُنسي الصغير هوى الرِّضاع فِطامُ
أو لم تكن في عين جالوت لنا ... هـمـم لـردع المعتـديـن عـظَـامُ

---

(١) « الكامل » (ج ٦) لابن الأثير ، « فتح صقلية » لشوقي خليل (ص ٧٧) ط . دار الغد .
(٢) « البداية والنهاية » (١٢ / ٢٦٦) .
(٣) « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٥٢) .

لما بلغ الملك المظفر قطز ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة وذبحهم للمسلمين وتشريدهم وتخريب دورهم وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بادرهم قبل أن يبادروه ، وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه ، حتى انتهى إلى الشام ، فكان اجتماعهم على « عين جالوت » يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان وهذه بشارة عظيمة فإن وقعة بدر كانت يوم الجمعة في رمضان .

ولما رأى قطز عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه : لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم .

وكان قطز قد رأى في المنام وهو صغير رسول اللّه وقال له : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وكان يحدث بهذا .

واقتتل الفريقان اقتتالاً عظيماً ، وقتل جواد قطز ، فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال عمال في المعركة ، وهو في موضع السلطان في القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ، ولم يزل كذلك حتى جاؤوه بالخيل فركب ، فلامه بعض الأمراء وقالوا : يا خوند لِمَ لا ركبت فرس فلان ؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك ، فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه ، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقاً من الملوك ، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضيع الإسلام .

وكانت النصرةُ وللّه الحمد للإسلام وأهله ، فهزموهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته ، قتله الأمير جمال الدين آقوش الشمس ، واتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع .

وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماه مع الملك المظفر قتالاً شديداً ، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ، وكان أتابك العسكر ، وقد أسر من جماعة كتبغانوين ابنه فأُحضر بين يدي قطز فقال له : أهرب أبوك ؟ قال : إنه لا يهرب ، فطلبوه فوجدوه بين القتلى ، فلما رأه ابنه صرخ وبكى ، فلما تحققه المظفر سجد للّه تعالى ثم قال : أنام طيباً ،

كان هذا سعادة التتار وبقتله ذهب سعدهم ، وهكذا كان كما قال ولم يفلحوا بعده أبداً وأسر الملك السعيد بن عبد العزيز بن العادل وكان يقاتل مع كتبغا فأمر المظفر بضرب عنقه .

واتبع الأمير بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان ، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان ، فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم ، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه ، فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً ، وأيّد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون ، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها فاحترق دور كثيرة للنصارى ، وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة (*) ، وهمت طائفة بنهب اليهود فقيل لهم إنهم لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان ، وقتلت العامة وسط الجامع شيخاً رافضياً ، كان خبيث الطوية مصانعاً للتتار على أموال الناس يقال له الفخر محمد بن يوسف الكنجي ، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين ﴿ فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

« رحم الله قطز فقد كان بطلاً كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله » (١) .

فتح أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ :

وهذه معركة من معارك المسلمين ضد الصليبيين أما الزمان فهو رمضان من سنة ستٍ وستين وستمائة ، وأما المكان فهو الشام وبالتحديد مدينة أنطاكية ، وأما القائد فهو السلطان المسلم والقائد المظفر قاهر المغول والصليبيين الظاهرُ بيبرس - رحمه الله - .

(*) « ثبت بأدلة قاطعة أن تحرك المغول للسيطرة على بلاد المسلمين كان بتحريض من الصليبيين وكانت هناك اتصالات بين البابا أنوسنت الرابع قبل سنة ٦٥٦ هـ وبين ملوك المغول سنة ٦٤٢ هـ ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أوفد لويس التاسع الناسك رجلاً آخر . وعندما دخل المغول دمشق قبل موقعة عين جالوت جعل النصارى يشربون الخمر علناً في رمضان ويرشونها على المسلمين ، كما صاروا يمرون في الطرقات وهم يحملون الصليب ويجبرون المسلمين على القيام احتراماً وإجلالاً لهم » انظر « معركة شقحب للدكتور محمد لطفي الصباغ » (ص ١١ - ١٥) .

(١) « البداية والنهاية » (١٣ / ٢٣٣ - ٢٣٤) ، (١٣ / ٢٣٨ - ٢٤٠) .

تولى هذا القائد المسلم الحكم في دولة المماليك بُعَيْد معركة «عين جالوت» ، وأبدى من الأعمال والإصلاحات ما جعل المؤرخين يعدونه بحق مؤسس الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز .

والواقع أن الظاهر بيبرس قاد أمة الإسلام وحقق اللّه النصر لها على يديه على عدوين قويين تحالفا من أجل القضاء على هذه الأمة ودينها ، وهما المغول الوثنيون في الشرق ، والصليبيون النصارى في الغرب . فالمغول في الشرق أقاموا لهم دولة في فارس والعراق ، وأصبحوا يتحيّنون الفرص للثأر من المسلمين الذين سحقوهم في معركة «عين جالوت» ، كما تحدثنا عن ذلك ، فيما مضى .

أما النصارى فعلى الرغم من الهزائم التى أنزلها بهم صلاح الدين الأيوبي - رحمه اللّه - فلا زالت الإمدادات تصلهم تباعاً من الدول الأوربية فتتقوى بها إماراتهم الثلاث في قلب العالم الإسلامي .

وهكذا وجد سلطان المسلمين آنذاك أنه محصور بين هاتين القوتين ، ومع ذلك لم يضعف ولم يستسلم ، ولكنه عزم على الجهاد ، هيأ دولته وشعبه لهذا الأمر العظيم ، واتخذ الأسباب المعينة على هزيمة الأعداء ، ووضع لنفسه منهجاً وأسلوباً عسكرياً فريداً ، قوامه الصرامة في التعامل مع الأعداء ، ووضع الخطط الحربية المناسبة ، والسرية التامة في كل تحركاته ووجهاته حتى مع جنده وقادته ، وحقق بتوفيق اللّه انتصارات حاسمة على المغول وعلى الصليبيين ، فتهاوت أمامه المدن والقلاع وطهَّرها من رجس الصليبيين ، وفي رمضان سنة ستٍ وستين وستمائة كان الموعد مع أنطاكية .

وأنطاكية عاصمة الإمارة الصليبية التي تحمل اسمها ، وهي واحدة من ثلاث إمارات صليبية ظلَّت باقية في العالم الإسلامي إلى ذلك الوقت ، حيث أزالها المماليك بعد ذلك .

سار السلطان بيبرس بجيشه نحو أنطاكية مارّاً بمدن الشام ، حيث أمرَ بإبطال الخمور والمنكرات ، وأمر ببناء مسجد في حمص ، وهكذا كان معظم قادة المسلمين يقدمون الأعمال الصالحة قبل جهادهم ، ويطهرون بلادهم من المعاصي والمنكرات لعلمهم أن ذلك هو الطريق إلى النصر المظفر بإذن اللّه .

وما خُذِلَ المسلمون وما هُزموا إلا بما قدمته أيديهم ، ولذا كانت وصية خلفاء رسول الله ﷺ لقادتهم هي اجتناب المعاصي والبعد عن الآثام لأنها سبب الهزائم .

وصلت الجيوش الإسلامية إلى أنطاكية ، وأحاطت بها من كل جانب ، وكان ذلك في يوم جمعة من أيام رمضان المبارك ، فكان ذلك شرف زماني عظيم تُرَجَّى فيه إجابة الدعوات ، وأرسل المسلمون للنصارى يطلبون منهم الاستسلام حفظاً لأرواحهم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، وفي يوم السبت زحفت العساكر الإسلامية وأطافت بالمدينة والقلعة على اتساعها ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً فتسوّر المسلمون الأسوار من جهة الجبل ، ونزلوا المدينة فهرب أهلها إلى القلعة ، وتسلم المسلمون المدينة ، فقتلوا من قاتلهم، وأسروا الباقي ، وكان في هذه المدينة مائة ألفٍ من الصليبيين من المحاربين .

وأما القلعة فقد اجتمع فيها ثمانية آلاف من المقاتلة الأشدّاء ، غير أنَّ المسلمين ضيَّقوا عليهم فطلبوا التسليم في يوم الأحد ، على أن لا يقتلوا فاستجاب لهم المسلمون وصعد السلطان الظاهر بيبرس - رحمه الله تعالى - وتسلَّم القلعة وعفا عن كل من فيها .

وكُتِبَت كتب البشائر لأنحاء العالم الإسلامي بهذا النصر العظيم ، والفتح الكبير وسقطت بذلك إمارة أنطاكية الصليبية ، فكان ذلك إيذاناً بزوال الإمارات الصليبية كلِّها .

وكان ملك أنطاكية خارجها فسلم لأجل ذلك ، وأرسل له السلطان بيبرس كتاباً يخبره بهذا الفتح ويصف له الوقعة ويدعوه إلى الاستسلام وهذه مقتطفات منه :

« وفتحناها بالسيف من يوم السبت من رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها ، والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها ، فلو رأيت خيالتك وهم صراعى تحت أرجل الخيل ، وديارك والنهابة فيها تصول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، وإماءك فكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار ، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق لكنت تقول : ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ [النبأ : ٤٠] ، واستنزلنا أصحابك من الصياصي ، وأخذناهم بالنَّواصي ، وفرقناهم في الداني والقاصي ، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان ، إلا النهر فلو استطاع لما تسمى بالعاصي ، وقد أجرى دموعه ندماً » [1] .

---

[1] « من معارك المسلمين في رمضان » (ص ٧٢ - ٧٤) .

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين ، واستعادوا منهم منطقة من مناطق العالم الإسلامي التي احتلوها قبل عشرات السنين ، ومع ذلك لم ييأس المسلمون ولم يقنطوا وعملوا أسباب النصر فوهب الله لهم ذلك .

فتح أرمينيا الصغرى سنة ٦٧٣ هـ :

موعدنا مع نصر عظيم حققه المسلمون على النصارى الأرمن في شهر رمضان من سنة ثلاث وسبعين وستمائة هجرية .

وأما مكان هذا النصر فهو الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط .

والحقيقة أن هذه المنطقة التي أطلق عليها المسلمون اسم الدرب تمثل الحدود المتاخمة لبلاد الروم ، ولذا اهتم بها المسلمون منذ وقت مبكر نظراً لموقعها الاستراتيجي على أبواب دولة الروم ، وأصبحت مدنُها ومراكزُها ثغوراً من أهم الثغور الإسلامية وأكثرها خطراً ، فشحنها الخلفاء المسلمون بالرجال والسلاح ، وجعلوا منها مراكز حصينة للدفاع عن أراضي المسلمين ، وأصبحت تعرف بثغور الشام . واشتهر من هذه الثغور مدن طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، والخلفاء مهتمون بأمرها ولا يولونها إلا شجعان القواد والراغبون في الجهاد .

وبعد قرون من القوة والمنعة ، أصاب هذه الثغور الضعف نتيجة عدم الاهتمام بها ، واستغل الروم ذلك فهاجموها واستولوا عليها ، ومنذ ذلك الوقت خرجت تلك الثغور من يد المسلمين وعادت للروم ، ثم بدأت أعداد من النصارى الأرمن يستقرون فيها واستطاعوا تشكيل كيان ثابت لهم في تلك البقاع سرعان ما تحول إلى دويلة صليبية في شمال العالم الإسلامي .

وحينما جاءت الحملات الصليبية إلى العالم الإسلامي فرح بها هؤلاء الأرمن وقدّموا لرجالها كلَّ المساعدة ، وأعانوهم على المسلمين ، ودلّوهم على عوراتهم ، بل إن الأرمن اشتركوا بصورة مباشرة في الحرب ضدَّ المسلمين ، وكانوا عليهم أشدَّ من نصارى أوروبا وأعنف ، ولا عجب فملة الكفر واحدة .

ولم يكتف الأرمن بذلك بل كان لهم أثر كبير في تشجيع المغول الوثنيين ودعوتهم لمهاجمة المسلمين ، وعقد ملوك أرمينيا الصغرى تحالفاً معهم ضد المسلمين . ولما جاءت الجيوش المغولية ، واكتسحت العالم الإسلامي انضمت جموع النصارى من الأرمن وغيرهم معهم ، وكانوا لا يقلون عنفاً وقسوة في تعاملهم مع المسلمين . وهذا هو الذي جعل المسلمين يعدّون الأرمن « أخبث عدو للمسلمين » كما يقول أحد المؤرخين .

ولكن وكما أشرنا إليه في الصفحات السابقة فإن الأمة الإسلامية كانت لا تستكين للهزيمة ، ولا تستسلم للذُلِّ ، وهذا هو ما يريده اللّه سبحانه وتعالى لها ، أمة مستعلية بدينها منتصرة بعقيدتها ، مستمدة أسباب ذلك منه - عز وجل - .

وبعد أن أفاقت الأمة الإسلامية من هول الاكتساح المغولي بدأ حكامها في العمل على تقويتها ، وأدركوا مدى الخطر العظيم الذي يمثله نصارى الأرمن على حدود الدول الشمالية ، فخططوا لإخضاعهم وكسر شوكتهم ، وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي « الظاهر بيبرس » .

وهذا الحاكم المسلم واحد من أعظم قادة الأمة الإسلامية في التاريخ ، حقق اللّه على يديه لأمة الإسلام انتصارات عظيمة على المغول والصليبيين . ووضع - رحمه اللّه - مملكة أرمينيا الصغرى نصب عينيه ، وانتهز فرصة هدوء الأوضاع على جبهات القتال مع المغول والصليبيين ، فكوّن جيشا عظيما هدفُه استعادة أملاك المسلمين التي استولى عليها نصارى الأرمن ، ولكنه أسرَّ ذلك ولم يطلع عليه أحداً من قادته ، وسار الجيش الإسلاميُّ من مصر قاصداً الشام ثم اتجه شمالاً إلى بلاد الثغور وكان بيبرس على رأس الجيوش ووصلوا إلى تلك المناطق ، ولنترك وصف مسير هذا الجيش لمؤرخ معاصر لهذه الحملة هو ابن عبد الظاهر حيث يقول : « ووصل الجيش النهرَ الأسودَ ، وقطعته العساكر بمشقة ، ووقف السلطان حتى عدَّى بأكثر الناس ، وفرق الأمراء بجيوشهم كلٌّ واحد منهم إلى جهة ، فطلعوا الجبال وما سأل أحد عن طريق ، ولا بالى بمضيق ، ومروا وعليهم جبال من الحديد لامعة ، وسنابك الخيل تتلوى على الجبال ، والأرض ترج رجّاً والجبال تبسُّ بساً وتغدو هباء منبثا » .

وتساقطت مدن الثغور الواحدة تلو الأخرى في يد المسلمين، وكان ذلك في شهر رمضان. وعيد السلطان بيبرس - رحمه اللّه - في مدينة «سيس» وهي كرسيُّ المملكة الأرمينية، واستولى على قصر الملك، واتجهت فرقة من الجيش المملوكي إلى مدينة «إياس» وهي ميناء أرمينية على البحر الأبيض فاستولت عليها، وفرت مجموعة من الأرمن والفرنج عبر البحر فغرقوا فيه وهكذا لم يكمُل شهر رمضان إلا والجيوش الإسلامية قد أتمت استعادة بلاد الثغر، واستحق السلطان بيبرس أن يوصف بقاهر الصليبيين والمغول. ولا غرو في ذلك فهو تلميذ صلاح الدين - رحمه اللّه - سار على منهجه، واتبع خطاه في الجهاد، فحقق اللّه على يديه النصر العظيم، وكان ذلك بعد عملٍ دؤوب وكفاح مستمر وتحقيق لعوامل النصر كما أوضحها القرآن الكريم، فالنصر دائماً مع المسلمين إن هم صدقوا اللّه وطبقوا شرعه وعملوا بمقتضاه.

وتغنى الشعراء بهذا النصر العظيم وخلّدوه في شعرهم، يقول أحدهم:

أي يوم بنصره قد حُبينا ... وبه اللّهُ قد أقرَّ العيونا
يومَ جزنا بلاد سيسٍ وقلنا ... أيَّ نصرٍ من ربِّنا قد جُزينا
إذ تبدَّى السلطان بين نجوم ... من بني الترك يعشقون المَنُونا

إلى أن يقول:

وترامت كل البلاد وقالت: ... ليتنا مثل سيس قد غُزينا
ليت جيش السلطان وافى إلينا ... ليت أنا بخيله قد وُطينا

وصدق هذا الشاعر فكم من البلاد تتمنى حكم المسلمين، وتحنّ إلى عدلهم ورحمتهم [١].

سنة ٧٠٢ هـ ٢ رمضان ٢٠ إبريل سنة ١٣٠٣ م «معركة شقحب [٢]» أو معركة «مرج الصُّفَّر»:

يرى المؤرخ الأرمني أن السبب في سير هذه الحملة التي وقعت فيها معركة شقحب كان رغبة قازان حفيد هولاكو في تحطيم سلطان المسلمين في مصر واسترداد الأرض

(١) «من معارك المسلمين في رمضان» (ص ٧٥ - ٧٧).

(٢) شقحب: عين ماء جنوب دمشق بعد قرية الكسوة على يمين الذاهب إلى حوراء.

المقدسة وتسليمها إلى النصارى، وأن قازان كان يريد السير بنفسه على رأس تلك الحملة، ولكنّ تهديد حدوده الشرقية أدى إلى أن ينيب عنه قطلوشاه التي تعاون مع النصارى ولا سيما أن الأرمن الذين كانوا يشكلون قوة كبيرة في جيش قطلوشاه، وقد استولوا على عدد من مدن المسلمين وقتلوا فيها ومثلوا ونهبوا وفعلوا الأفاعيل البالغة في الفظاعة والشناعة.

وكان الرعب الذي يرافق تحركات المغول شديداً يملأ صدور الناس ويوهن قواهم.

وعمل العلماء على إشراك الخليفة المستكفي بالله والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الصالحي في مواجهة هؤلاء الغزاة وقام شيخ الإسلام بن تيمية بمهمة جسيمة في هذا المجال وجعل المرجفون يرددون: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار وتصدى ابن تيمية والعلماء لهولاء المرجفين المثبطين حتى استطاعوا أن يقنعوا الأمراء بالتصدي للتتار مهما كان الحال. واجتمع الأمراء وتعاهدوا وتحالفوا على لقاء العدو وشجعوا أنفسهم ورعاياهم، ونودي بالبلد دمشق أن لا يرحل منه أحد، وتوقدت الحماسة الشعبية وارتفعت الروح المعنوية عند العامة والجند وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية أعظم التأثير في ذلك الموقف. ثم عمل - رحمه الله - على إلهاب عواطف الأمة وإذكاء حماستها وتهيئتها لخوض معركة الخلاص، وتوجه إلى معسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيفة ما بين دمشق وحمص، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يحلف للأمراء والناس، إنكم في هذه الكرّة منصورون.

فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله.

فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ **ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله** ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد ظهرت عند بعضهم شبهات تفت في عضد المحاربين للتتار من نحو قولهم:

كيف نقاتل هؤلاء التتار وهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام .. فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه ؟

فردّ شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الشبهة قائلاً :

هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليّ ومعاوية - رضى اللّه عنهما - ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين وهم متلبسون بالمعاصي والظلم .

فانجلى الموقف وزالت الشبهة وقال ابن تيمية :

« إذا رأيتموني في ذلك الجانب - يريد جانب العدو - وعلى رأسي مصحف فاقتلوني » وخرج بن تيمية من دمشق صبيحة يوم الخميس من باب النصر بدمشق وصحبته جماعة كبيرة يشهد القتال بنفسه وبمن معه .

وأراد السلطان الناصر أن يقف معه بن تيمية تحت رايته في القتال ، فقال له بن تيمية : السنة أن يقف تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم ، وحرّض السلطان على القتال وبشره بالنصر .

وأفتى بن تيمية الناس بالفطر مدة قتالهم ، وأفطر هو أيضاً وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليقووا به على القتال أفضل من صيامهم .

وكان عدد الجيش المغولي خمسين ألف مقاتل ، وقيل إن عدده كان يصل إلى مائة ألف وكان فيه فرقتان الكرج ونصار ى الأرمن .

وكانت المعركة في يوم السبت ٢ رمضان في سهل شقحب الذي يشرف عليه جبل غباغب وكان السلطان الناصر والخليفة المستكفي باللّه والقضاة والأمراء في القلب ومر السلطان والخليفة والقراء بين صفوف الجيش وكانوا يقرؤون آيات القرآن التي تحض على الجهاد والاستشهاد وكان الخليفة يقول : دافعوا عن دينكم وعن حريمكم .

ووضعت الأحمال وراء الصفوف ، وأمر الغلمان بقتل من يحاول الهرب من المعركة .

والتحم القتال وثبت السلطان ابن قلاوون ثباتاً عظيماً ، وأمر بجواده فقيدّ حتى يهرب ، وبايع اللّه تعالى في ذلك الموقف وصدق اللّه فصدقه اللّه وقُتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ منهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي ، وثمانية من الأمراء المقدمين معه .

واحتدمت المعركة ، وحمي الوطيس ، واستحر القتل ، واستطاع المغول في بادئ الأمر أن ينزلوا بالمسلمين خسارة جسيمة فقتل من قتل من الأمراء ولكن الحال لم يلبث أن تحول بفضل اللّه - عز وجل - ، وثبت المسلمون أمام المغول وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وتغير وجه المعركة وأصبحت الغلبة للمسلمين ، حتى أقبل الليل فتوقف القتال إلا قليلاً ، وطلع المغول إلى أعلى جبل غباغب ، وبقوا هناك طول الليل ، ولما طلع النهار نزلوا يبغون الفرار بعد أن ترك لهم المسلمون ثغرة في الميسرة ليمروا منها ، وقد تبعهم الجنود المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، كما أنهم مرّوا بأرض موحلة وهلك كثيرون منهم فيها ، وقبض على بعضهم .

قال ابن كثير : « فلما جاء الليل لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر ، فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا اللّه - عزّ وجل - ، وجعلوا يجيئون بهم من الجبال فتضرب أعناقُهم .

ثم لحق المسلمون أثر المنهزمين إلى « القريتين » (١) يقتلون منهم ويأسرون ووصل التتار إلى الفرات وهو في قوة زيادته فلم يقدروا على العبور .. والذي عبر فيه هلك .. فساروا على جانبه إلى بغداد فانقطع أكثرهم على شاطيء الفرات وأخذ العرب منهم جماعة كثيرة .

وفي يوم الاثنين رابع رمضان رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشروا الناس بالنصر . وفيه دخل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من المجاهدين ، ففرح الناس به ، ودعوا له ، وهنؤوه بما يسرّ اللّه على يديه من الخير .

وفي يوم الثلاثاء خامس رمضان دخل السلطان إلى دمشق وبين يديه الخليفة ، وزينت البلد ، وبقيا في دمشق إلى ثالث شوال إذ عادا إلى الديار المصرية » (٢) .

---

(١) وهي بلدة على طريق المسافر بين بغداد ودمشق .

(٢) « البداية والنهاية » (١٤ / ٢٤ - ٢٦) .

وكان فرح السلطان الناصر والمسلمين بهذه المعركة فرحاً كبيراً، ودخل مصر دخول المظافر المنتصر يتقدم موكبه الأسرى المغول يحملون في أعناقهم رؤوس زملائهم القتلى واستقبل استقبال الفاتحين .

قال ابن حجر في «الدرر الكامنة» (٤ / ٢٦١ - ٢٦٥) : «كانت وقعة شقحب وكان للناصر فيها اليد البيضاء من الثبات، ووقع النصر للمسلمين» .

يقول ابن عبد الهادي :

«قد أخبرني صاحب أمير، ذو دين متين، وصدق لهجة، معروف في الدولة، قال : قال لي الشيخ يوم اللقاء ونحن بمرج الصفر وقد تراءى الجمعان : يا فلان ! أوقفني موقف الموت .

قال : فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم، ثم قلت له : يا سيدي هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك ما تريد . قال : فرفع طرفه إلى السماء وأشخص بصره، وحرّك شفتيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم على القتال .

وأما أنا فخيّل إليّ أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة .. ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته حتى فتح اللّه ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين في تلك الساعة .. وكان آخر النهار وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما تحريضاً على القتال، وتخويفاً للناس من الفرار» .

قال ابن عبد الهادي «وظهر فيها من كرامات الشيخ، وإجابة دعائه، وعظيم جهاده وقوة إيمانه وشدة نصحه للإسلام، وفرط شجاعته، ونهاية كرمه، وغير ذلك من صفاته ما يفوق النعت ويجوز الوصف» [(١)] .

فتح جزيرة قبرص في عهد المماليك سنة ٨٢٩ هـ :

مخرت سفن المسلمين عباب البحار للجهاد ونشر دين اللّه في كل منطقة يصلون

---

(١) انظر «معركة شقحب» للدكتور محمد لطفي الصباغ و«العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص ١٧٥ - ١٧٨) .

إليها ، كما طوت خيلهم فلوات الأرض حتى وصلت أقصاها .

وكانت جزيرة قبرص ، من المناطق التي فتحها المسلمون منذ عصر مبكر حيث وصلها معاوية بن أبي سفيان - رضى الله عنه - سنة ٢٨ هـ لتكون بعد ذلك خاضعة للمسلمين تدفع لهم الجزية كل عام ، وظلت كذلك مدة من الزمن حتى إذا ضعف المسلمون بعد ذلك طمع فيهم الأعداء من نصارى أوروبا فغزوهم بجيوش جرارة متتابعة وسقطت بعض المناطق الإسلامية في أيديهم ومنها جزيرة قبرص .

والحقيقة أن هذه الجزيرة بموقعها الاستراتيجي شرق البحر الأبيض المتوسط ظلت طيلة الحروب الصليبية قاعدة ينطلق منها الصليبيون لمهاجمة العالم الإسلامي ، وأصبح حكامها أكثر النصارى تعصباً للحروب الصليبية ورغبة في استمرارها ، ولذا ظلوا يسعون لدى ملوك أوروبا ويطلبون منهم إرسال الحملات العسكرية لتحطيم العالم الإسلامي .

وفي سنة ٧٦٩ هـ قاد ملك قبرص حملة صليبية اتجهت نحو الإسكندرية وهاجمها في غفلة من حكامها واستطاع دخولها فأعمل السيفَ في رقاب المسلمين وقتل وأسر ونهب ، وكانت مقتلة عظيمة لم يصب هذا الثغر بمثلها قبل ذلك ، وعاد هذا الملك الصليبي الحاقد على الإسلام محملا بما نهب من المسلمين .

وظل حكام المماليك في مصر يتحينون الفرصة للأخذ بالثأر والقضاء على خطر هذه الجزيرة ومعاقبة حكامها .

وفي عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) عقد هذا السلطان العزم على فتح هذه الجزيرة وأخذ يستعد لذلك بتجهيز المراكب وتجميع العساكر ، وأرسل لها ثلاث حملات متتاليات في ثلاث سنوات ابتداءً من سنة ٨٢٧ هـ وكلُّها في شهر رمضان .

كانت الحملتان الأوليان لغرض الاستكشاف ، استطاع المسلمون من خلالهما التعرف على الجزيرة ومدى قوة حكامها ، كما حققوا انتصارات عليهم وعادوا محملين بالغنائم والأسرى .

أما الحملة الثالثة : فكانت في شهر رمضان سنة ٨٢٩ هـ وقادها أربعة من أمراء

المماليك انطلقت في عدد كبير من المراكب نحو الجزيرة ، تحمل أعداداً عظيمة من المجاهدين ، وقد تخلف عدد أكبر لم يجدوا ما يحملهم فحزنوا لذلك حزناً شديداً .

يقول المؤرخ المعاصر لذلك الفتح ابن تغري بردي : « وعظم ازدحام الناس على كُتّاب المماليك ليكتبوهم في جملة المجاهدين في المراكب المعيَّنة ، حتى أنه سافر في هذه الغزوة عددٌ من أعيان الفقهاء ، ولما أن صار السلطان لا يُنعم لأحد بالتوجه بعد أن استكفت العساكر ، سافر جماعة من غير إذن ، وأعجبُ من هذا ، أنه كان الرجل ينظر في وجه المسافر للجهاد يعرفه قبل أن يسأله لما بوجهه من السرور والبشر الظاهر بفرحه للسفر ، وبعكس ذلك فيمن لم يعينَّ للجهاد ، هذا مع كثرة من تعين للسفر من المماليك السلطانية وغيرهم ، وما أرى هذا إلا أنّ اللّه تعالى قد شرح صدرهم للجهاد وحببهم في الغزو وقتال العدو ليقضي اللّه أمراً كان مفعولاً ، ولم أنظر ذلك في غزوة من الغزوات قبلها ولا بعدها » .

وكان ليوم خروج المجاهدين نهارٌ يجل عن الوصف ، اجتمع الناس لوداعهم وابتهلوا إلى اللّه تعالى أن ينصرهم ، ووصلت السفن الإسلامية جزيرة قبرص ، ونزل المجاهدون يفتحون المدن والقرى كل ذلك في شهر رمضان المبارك ، وحلت الهزائم بالنصارى واستنجدوا بملوك أوروبا فوصلت إليهم الإمدادات وتجمعت جيوشهم والتقى بها المسلمون في معركة حاسمة وكانت أعداد النصارى أضعاف عدد المسلمين ، والمسلمون مع قلتهم ويسير عددهم في ثبات إلى أن نصر اللّه الإسلام وأُسر ملك قبرص المدعو « جانوس » وركب المسلمون أقفية النصارى يقتلون ويأسرون حتى أن قتلى النصارى يجلون عن الحصر . وتم فتح العاصمة وتوالت الانتصارات وكمل فتح الجزيرة . ثم أقام المجاهدون وأراحوا أبدانهم سبعة أيام ، وهم يقيمون شعائر الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح وحمد اللّه على هذا الفتح العظيم الذي لم يقع مثله في الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن أبي سفيان – رضي اللّه عنه – .

وعاد المسلمون إلى مصر يحملون الأسرى وعلى رأسهم ملك قبرص وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيما ، وحينما علم بذلك السلطان المملوكي بكى من شدة الفرح، وبكى الناس لبكائه ، وصار يكثر من الحمد والشكر للّه سبحانه وتعالى ، وانطلقت ألسن الشعراء تشيد بهذا الفتح العظيم يقول أحدهم :

بشراك يا مُلْكَ المليك الأشرفي — بفتوح قبرص بالحسام المشرفي
فتح بشهر الصوم تم له فيا — لك أشرف في أشرفٍ في أشرفِ
فتحٌ تفتحت السماوات العلى — من أجله بالنصر واللطف الخفي
واللّه حفّ جنوده بملائك — عاداتها التأييد وهو بها حفي

وهكذا انتصر المسلمون في هذا الشهر العظيم بعد أن صدقوا في جهادهم واستعانوا باللّه على أعدائهم فوفقهم ونصرهم رغم قلة عددهم وكثرة أعدائهم [١] .

فتح البوسنة والهرسك سنة ٧٩١ هـ « معركة قوص أوه » :

سيكون الحديث عن منطقة من مناطق العالم الإسلامي تواجه أعظم هجمة صليبية في العصر الحديث ، حيث يقضى على المسلمين بالقتل والأسر والتهجير ، وحيث يموت الآلآف بأيدي الصليبيين أو نتيجة الجوع والعطش والمرض ، حيث هم محاصرون منذ سنوات .

إنها منطقة البوسنة والهرسك ، نعود إليها عبر سنين مضت لنعرف كيف وصلها الإسلامُ وانتشر فيها ، وكيف انتصر المسلمون على النصارى الصرب في ذلك الوقت ، وضموها إلى بلادهم .

في ذلك التاريخ كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها وازدهارها حينما اكتسحت أوروبا الشرقية فتهاوت مدنها ودولها تحت ضربات الجيش العثماني المسلم ، ووصلت طلائع هذا الجيش إلى مدينة « فيينا » لتحاصرها فترة من الزمن ، ويتسابق ملوك أوروبا بإعلان الولاء والانقياد للسلاطين العثمانيين ، في ذلك التاريخ كان هَمُّ هؤلاء السلاطين الجهاد في سبيل اللّه ونشر كلمة التوحيد في كل مكان .

لنتوقف قليلاً في عهد السلطان مراد الأول بن السلطان أورخان الغازي ، فقد كان من السلاطين العظام الذين جاهدوا في سبيل اللّه ففتحوا المناطق الواسعة من أوروبا .

ولد هذا السلطان سنة ست وعشرين وسبعمائة للهجرة ، ونشأ على كريم الأخلاق ، ولما شب اشترك مع والده في جهاد اليونان ، فأظهر بسالة لا توصف وإقداما لفت الأنظار ،

(١) « من معارك المسلمين في رمضان » (ص ٨١ - ٨٣) .

وبعد وفاة والده تولى الحكم سنة إحدى وستين وسبعمائة هجرية فقضى كل سني حكمه في جهاد مستمر .

كانت أول أعماله الجهادية فتح مدينة « أدِرْنَه » فجعلها عاصمة لدولته وظلت كذلك حتى فتحت القسطنطينية ، ثم ساق جيشه نحو البلقان فتبوأوا مدنها وافتتحوا حصونها ، وأبرم معاهدة مع ملك اليونان ، بيد أن هذه المعاهدة لم تستمر طويلاً ؛ حيث نقضها اليونان ، وهكذا استطاع السلطان مراد الأول أن يستولي على جزء كبير من أوروبا الشرقية ، وأن يحيط بالقسطنطينية من جميع الجهات .

وهنا اضطرب ملوك أوروبا النصارى وارتعدت فرائصهم ، وأدركوا عظيم الخطر الذي تشكله هذه الدولة المسلمة الفتية ، فطلبوا من البابا « أوربانوس » الخامس أن يأمر جميع الدول النصرانية أن تتحد للوقوف في وجه المسلمين ، وإخراجهم من أوروبا قبل أن يجتازوا حدود البلقان وحينئذٍ لا يستطيع أحد الوقوف في وجههم فيكتسحوا أوروبا كلَّها .

ولبّى البابا استغاثتهم وكتب لجميع ملوك أوروبا النصارى يأمرهم بالتأهب لمحاربة المسلمين ، وأن يشنوا حرباً دينية للحفاظ على النصرانية في وجه الإسلام ولم ينتظر الملك أوروك الخامس ملك الصرب وصول الإمدادات من أوروبا ، بل استعان بالدول القريبة منه وكوّن جيشا جراراً من اليونان والصرب والمجر والرومان ، وسار بهم إلى عاصمة العثمانيين أدِرْنة فحاصرها ، وكان السلطان مراد خارجها فعاد مسرعاً بجيشه ، وهاجم النصارى بغتة حيث فوجئوا بالتهليل والتكبير وسيوف المسلمين تعلوهم فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى ولّوا الأدبار تاركين الثرى مخضبا بدمائهم ، وهكذا فشلت محاولة الصرب هذه ضد المسلمين .

وكان من نتيجة هذه المعركة أن تسابق حكام البلقان لإعلان الولاء للمسلمين ودفع الجزية لهم .

وفي سنة إحدى وثمانين وسبعمائة تحالف ملك الصرب الجديد « لازارجر بلينانوفتش » مع ملك البلغار على مهاجمة المسلمين ، لكنهما بعد عدة مناوشات تحققا

من عجزهما عن هزيمة العساكر الإسلامية ، فأبرما صلحاً مع السلطان مراد ، على أن يدفعا له خراجاً سنوياً .

ولم يستمر هذا الصلح طويلاً فقد نقضه النصارى ، وبدأوا يعدُّون العدة لمحاربة المسلمين ، إلا أن العثمانيين لم يمهلوهم فاجتاحت جيوشهم بلاد البلغار وهزمت ملكها واحتلت مدُنها ، وانتهى الأمر بأسر ملك البلغار .

ولما علم ملك الصرب لازار بذلك بدأ يستعد لمواجهة المسلمين فألَّف جيشاً من الصرب والبوسنة والهرسك والألبان والأفلاق والبُغدان وتعاهد الجميع على محاربة المسلمين والاستيلاء على الدولة العثمانية ، وبلغ الخبر مسامع السلطان مراد فألَّف مجلسا للشورى والنظر في الأمر ، لكن ولده بايزيد هتف قائلاً في المجلس : « الحرب الحرب والقتال القتال » فأبطل كل مشورة ، ودقَّت طبول الحرب وسار الجيش الإسلامي إلى الأعداء فالتقاهم في سهل « قوص أوه » سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ونشب القتال بين الجانبين ووثب المسلمون على النصارى والتحموا معهم في القتال التحاما لم يعد يرى معه إلا جماجم طائرة وفرسان غائرة ، ودويّ سلاح يدك الجبال الشامخة ، وبقيت الحرب بينهما سجالاً مدةً من الزمن دافع الصليبيون الصرب خلالها دفاعاً مستميتاً ، وتناثرت الرؤوس ، وأزهقت النفوس ، وفي أثناء المعركة انحاز صهر ملك الصرب بفرقته إلى المسلمين ، ودارت الدائرة على الصربيين ، وجرح ملكهم لازار ، ثم وقع أسيراً في يد المسلمين ، وانتصر المسلمون على الصربيين وكانت من المعارك الحاسمة في تاريخ أوروبا الشرقية ، وظلَّ ذكرها شهيراً في أوروبا بأسرها ، وزال استقلال الصرب وخضعت كل بلادها للمسلمين ، كما فقدت البلغار استقلالها من قبل .

وبعد المعركة أخذ السلطان مراد يتمشى بين الجثث وينظر إليها بعين الاندهاش ، إذ قام من بينها جندي صربي اسمه « ميلوك كوبلوفتش » فطعن السلطان بخنجر طعنة قاضية ، وسقط – رحمه الله – ليسلم الروح بعد قليل .

وهكذا شهد سهل كوسوفو بولجي معركة (قوص أوه) الحاسمة بين المسلمين والصرب ، وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً ، وأخذ الإسلام ينتشر في تلك البقاع حتى تحولت مناطق كاملة إلى الإسلام كما هو الحال في البوسنة والهرسك وكوسفو وغيرها .

وكما يشهد هذا انتصار المسلمين ، فقد شهد أيضا غدر الصرب الذي ذهب ضحيته سلطان المسلمين مراد ، فمات أوائل شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة من الهجرة - رحمه اللّه - وسجل التاريخ منذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا أن الصرب لا يلتزمون بعهد ولا ميثاق ، ولا يعرفون في تعاملهم مع المسلمين إلا لغة القوة والبطش وسفك الدماء .

واليوم وكما غدر الصرب وأعوانهم بقائد المسلمين في تلك المعركة يغدرون بالمسلمين جميعاً في البوسنة والهرسك ، فيقتلون ويأسرون ويغتصبون لا يردعهم خلق ولا دين ، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، والعجب كل العجب أن يقف المسلمون جميعا موقف المتفرج على هذا كله » [1] .

سنة ٨٢٧ هـ ٢٥ رمضان فتح بلغراد عاصمة المجر على يد السلطان العثماني سليمان القانوني :

« كان السلطان سليمان قد أرسل سفيراً إلى ملك المجر يطلب منه دفع الجزية أو الحرب ، فما كان من ملك المجر (لويز الثاني) إلّا أن أمر بإعدام السفير ، مما أثار غضب السلطان سليمان ، فأمر بتجهيز الجيوش وجمع كل ما تتطلبه من الذخائر والمؤن ، وسار هو بنفسه في مقدمة الجيش ، وأرسل أحد مشاهير قواده (واسمه أحمد باشا) لمحاصرة مدينة « شابتس » [2] القريبة من بلغراد ، ففتحها يوم ٢ شعبان سنة ٩٢٧ هـ (الموافق ٨ تموز - يوليو سنة ١٥٢١ م) ، ووصل إليها السلطان سليمان في اليوم التالي ، ثم قاد الجيوش التي كانت تقوم على حصار هذه المدينة لمساعدة وزيره (بير محمد باشا) الذي كان يحاصر مدينة بلغراد ، ويضيق الخناق عليها ، ودافع المجريون عن عاصمتهم دفاعاً شديداً ، غير أن جند المسلمين تمكنوا من اقتحامها يوم ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ هـ (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١ م) وأخلى الجنود المجريون قلعتها ، ودخلها السلطان ، وصلى الجمعة في إحدى كنائسها التي حُوِّلت فوراً إلى مسجد . وصارت هذه المدينة التي كانت أمنع حصن للمجريين ضد تقدم القوات العثمانية ، أكبر مساعد لها على فتح ما وراء

---

(١) « من معارك المسلمين في رمضان » (ص ٨٤ - ٨٧) .

(٢) تقع إلى الشمال من بلغراد وتسمى اليوم سابوتيكا .

الدانوب من الأقاليم والبلدان . وأعلن السلطان هذا الانتصار بالكتابة إلى جميع الولاة ، وإلى ملوك أوروبا ، ورئيس جمهورية البنادقة ، ثم عاد القسطنطينية مكللاً بالنصر والظفر على الأعداء ، وأرسل إليه قيصر الروس يهنئه بالفوز والظفر ، وكذلك فعل رئيسا جمهوريتي البندقية وراجوزه [١] » [٢] .

جهاد المسلمين في الحبشة سنة ٩٣٥ هـ :

موعدنا مع نصر عظيم حققه المسلمون للإسلام في بقعة كانت ولا زالت موطناً للجهاد في سبيل الله ، وصلها الإسلام منذ وقت مبكر وظل ينتشر فيها وبين أبنائها حتى اعتنقه أكثرهم ، فكان منهم الدعاة والمجاهدون الذين حملوا لواء هذا الدين ينشرونه ويدعون له بين بني قومهم .

إنها بلاد الحبشة ، دار الهجرة الأولى : التي آوت المسلمين المهاجرين فترة من الزمن .

لقد انتشر الإسلام على يد هؤلاء المهاجرين ، ثم توافد المسلمون إلى تلك البلاد من الحجاز واليمن ، واستقروا فيها ، وحملوا معهم الإسلام وتعاليمه ، وأخذ ينتشر انتشاراً سلمياً هادئاً ، حتى إذا مضى قرن ونيف من الزمان تحول الساحل الحبشي إلى الإسلام وأصبح المسلمون هم سادته وحكامه .

ولم يتوقف المدُّ الإسلامي عند الساحل فقط ، بل تعداه إلى الداخل في عمق الهضبة الحبشية ، حيث أصبح سكان تلك المناطق من المسلمين ، وتحولت قبائل كثيرة من الأحباش إلى الإسلام .

وبمرور الوقت اتضح الكيان السياسي للمسلمين في الحبشة وكونوا لهم سبع ممالك إسلامية ، عرفت بممالك الطراز الإسلامي ، وقد تولى حكام هذه الممالك الإسلامية عبء الجهاد في سبيل الله في الحبشة .

وإلى جانب هذه الممالك تقوم دولة نصرانية تتخذ من مدينة أكسوم عاصمة لها وهي الدولة التي استضاف واحد من حكامها الأوائل جموع المهاجرين المسلمين ، إلا أن

---

(١) من النمسا الآن .

(٢) « القانوني القائد » لبسام العسلي (ص ٢٨ - ٢٩) طبع دار النفائس .

حكامها المتأخرين أظهروا العداوة للمسلمين وبدأوا يحاربونهم ويفتنونهم عن دينهم ويضيقون عليهم ، وإذا كان المسلمون في أول الأمر قد كفوا عن مهاجمة الحبشة ولم يمدوا إليها موجة الجهاد الإسلامي ، فإنهم اضطروا أخيراً إلى إعلان الجهاد ومهاجمة الدولة النصرانية للدفاع عن دينهم وأنفسهم وإخوانهم المسلمين .

وتوالى عدد من الحكام المسلمين المجاهدين الذين قتل أغلبهم في ساحات المعارك مع النصارى ، وكلما سقط واحد منهم رفع اللواء آخر ، حتى آل إلى مجاهد كبير وقائد عظيم من قادة المسلمين الأحباش ذلك هو الإمام أحمد بن إبراهيم القرين أو أحمدُ جران كما يسميه المسلمون هناك .

كان هذا الإمام ابنا لقسيس حبشي فاعتنق الإسلام وحسن إسلامه ، ووجد نفسه في دولة إسلامية ضعيفة ، يهيمن عليها النصارى ، ويأخذون من حكامها الجزية عكس ما يدعو إليه الإسلام ، فلم يستسلم لذلك بل عمل على تقوية المسلمين وذلك بالدعوة إلى الجهاد وإثارته في النفوس .

واستطاع الإمام أحمد توحيد الدولة الإسلامية في الحبشة ، وكان أول عمل قام به بعد ذلك هو منع دفع الجزية للملوك النصارى ، وعندئذ أصبح قيام الحرب بينهم أمر لا مفر منه ، وعندما تحركت جيوش الحبشة النصرانية ، واجتاحت مملكة المسلمين تصدى لها الإمام أحمد وهزمها شر هزيمة ، وعندئذٍ اشتعلت في نفوس المسلمين حماسة الجهاد في سبيل اللّه والتي كمنت في نفوسهم وقتا طويلاً .

واستطاع الإمام أحمد تنظيم صفوف القبائل المسلمة في مهارة فائقة ، وجعل منهم قوة ضاربة منيعة ، وعندما تم له ذلك ، أعلن الجهاد في سبيل اللّه ، وحاول البعض من المسلمين اليائسين تحذيره من هذا الأمر ، وأن مصيره سيكون مثل مصير الحكام السابقين الذين ماتوا في ساحات المعارك ، ولكن الإمام أجابهم بأن الجهاد في سبيل اللّه لا يمكن أن يعود بالخسران على المسلمين .

وتوالت انتصارات المسلمين في الحبشة وتوالى سقوط المدن النصرانية في أيدي المسلمين ، وسيطروا على وسط الحبشة وجنوبها في مدة وجيزة ، وأقبل الأحباش على

الإسلام يعتنقونه بأعداد كبيرة ، حتى أن قائداً من قادتهم قد دخل بجنده في الإسلام دفعة واحدة وكان عددهم عشرين ألفاً ، ويذكر أحد المؤرخين أنه لم يبق على النصرانية أكثر من العُشر وهم الذين فضلوا دفع الجزية للمسلمين .

وحاول إمبراطور الحبشة جمع جيوشه المنهارة فاجتمع له عدد كبير سار بهم نحو المسلمين وعلم الإمام بذلك فسار بجيشه مسرعا والتقى العسكران الإسلامي والنصراني، وبات المسلمون يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ، وقام الإمام أحمد في أصحابه وقال : توكلوا على الله واعتصموا به وأشيروا عليَّ : فقالوا : الجهاد بغيتنا ومُنانا ، ولا نزال نصبر لهم على الضرب والطعن حتى يحكمَ الله بيننا وهو خير الحاكمين ، ففرح بقولهم وبات الجميع مستعدين للقتال ، وفي صباح يوم من أيام رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة من الهجرة بدأت المعركة بين المسلمين وأعدائهم ، وأبلى المسلمون بلاء حسنا وصمدوا في وجه النصارى رغم قوتهم وكثرة عددهم ، وأنزل الله النصر عليهم ، فانهزم النصارى هزيمة قاسية ، وقتل أكثرهم وانفتح الطريق إلى عاصمتهم أكسوم فاستولى عليها المسلمون وقضوا على بقية دولتهم .

هذا هو الفتح العظيم الذي حصل للمسلمين في الحبشة على يد أحمد القرين - رحمه الله - والذي حول الحبشة كلها إلى الإسلام .

ولكنَّ القوى الصليبية في ذلك الوقت لم تكن لتسكت على انهيار دولة النصارى الوحيدة في العالم الإسلامي ، وكان الأحباش النصارى قد استنجدوا بالبرتغال وهم سادة البحار في ذلك الوقت ، فأنجدوهم بجيش قوي حديث مسلح بالمدافع ، التي لا يعرفها المسلمون الأحباش في ذلك التاريخ ، ودخلت القوات البرتغالية الحبشة ورحب بها النصارى وقاومها المسلمون ، وحدثت معارك عنيفة بين الصليبيين والمسلمين وصمد المسلمون أمامهم مدة من الزمن وكانت مدافع البرتغاليين تقصفهم بلا هوادة ولا رحمة ، واستنجد المسلمون بالعثمانيين وتأخرت النجدات ، وما وصل منها لم يكن ليغير ميزان القوى لضعفه وقلة تسليحه ، وحلت الهزيمة بالمسلمين وقتل قائدهم أحمد القرين - رحمه الله - وبذلك تغير مجرى التاريخ في الحبشة ، وعادت القوة للنصارى ، واتخذت هجماتهم طابعاً من القوة والوحشية ،

وخربوا المساجد وأماكن العبادة وأفرطوا في القتل والتنكيل ، وأرغموا المسلمين على اعتناق النصرانية . وهكذا أبلى هذا القائد المسلم بلاءً حسنا في الجهاد ، وقاد جيوشه في هضبة الحبشة ينشر الإسلام ، وكان أكثر معاركه في شهر رمضان .

وإلى جانب نجاحه - رحمه اللّه - كقائد عسكري ، فقد كان نموذجاً للحاكم المسلم ، يقيم الحدود ، ويداوم على الفرائض ، ويجلس ويلطف بالمساكين ، ويرحم الصغير ويوقر الكبير ، وينصر المظلوم من الظالم حتى يرد الحق إلى مكانه ، ولا تأخذه في اللّه لومة لائم » [(١)] .

سنة ١٣٩٣ هـ العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ١٩٧٣ النصر على اليهود :

منّ اللّه على عباده وجنوده المؤمنين في مصر بهزيمة اليهود في العاشر من رمضان وعبر المسلمون القناة وحطموا خط بارليف وعلا التكبير في كل مكان من أرض المعركة وأذل المسلمون اليهود في هذه الحرب فالنصر حليف الإيمان والطاعة .

دارت على سيناء معركة الوغى ... فوق السهول وفي ربى وبطاح
وكتائب الإيمان تهتف كلها ... (اللّه أكبر) فوق كل سلاح
لتدك بارليف المنيع بقوة ... طب الجراح بمبضع الجرّاح
فإذا (مسليمة) اليمامة هارب ... متنكراً يعدو بمرط (سجاح)
وإذا (بمائير) العجوز بمأتم ... ومناحة كبرى سوء صياح
ما أفلتت دبابة من حتفها ... (كوهين) أو (شالوم) أو (مزراحي)
(عساف ياجوري) أتى مستسلماً ... بفريقه أملا بيوم سراح
وهناك في أعلى الهضاب مجند ... كالليث تحت لوائه الصداح
(اللّه أكبر) زلزلت أركانهم ... وكأنما يشدو بها ابن رباح[(٢)]

---

(١) « من معارك المسلمين في رمضان » (ص ٩٢ - ٩٥) .
(٢) مجلة منبر الإسلام شعر عبد الغفار الدلاش .

واليوم يعود اليهود يذبحون المسلمون وهم ساجدون في المسجد الإبراهيمي في رمضان ويا للمفارقة العجيبة :

وكنا عظاماً فصرنا عظاماً وكنا نقوت فها نحن قوت

* * *